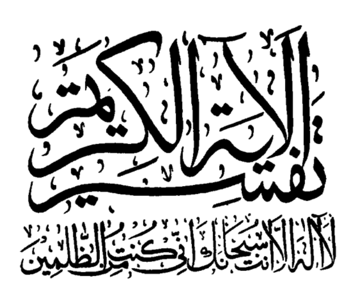


الطبعة الاولى

١٤٠٧هـ . ١٩٨٦م

الـــدار السلفيـــة
٦/٨ اى ـ حضرت تيرس انيكس
شــارع شيخ حفيظ الــدين
بومبــاى ـ ٠٠٨ ٤٠٠ الهند
هاتف : ٣٧٧٧٥٥ ـ ٣٩٦٧٤٧
تلكس : ٧٦٨٣٢ ـ ١١. سلف ان
برقيا : «السلفية»

AL – DARUSSALAFIAH
6/8 – A, HAZRAT TERRACE ANNEXE,
SHAIKH HAFIZUDDIN ROAD
BYCULLA BRIDGE, BOMBAY – 400 008
TELEX . 011 76832 SALF IN
GRAM : «ALSALAFIAH»



تأليف

شيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية
(٦٦١ - ٧٢٨ هـ = ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م)

تحقيق وتعليق

الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد

عني بنشره



بومباي الهند

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المسلمين وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته الى يوم الدين .

يسعدنا ان نقدم للقراء تحفة نادرة من درر مؤلفات شيخ الاسلام احمد بن عبدالحليم ـ ابن تيمية رحمه الله تعالى ـ وهى تفسير الآية الكريمة «لاَإِلَه إلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِيْن» التى قال فيها النبى ﷺ انها «دعوة اخى ذى النون . مادعابها مكروب الاّ فرج الله كربته» .

وكلام شيخ الاسلام ردّ لسؤال وجهه اليه بعض الناس وكان السؤال يتضمن الاستيضاح عن ثمانى نواح تتعلق بهذه الآية وهى :

١ ـ مامعنى هذه الدعوة ؟

٢ ـ لم كانت كاشفة للضر ؟

٣ ـ هل لها شروط باطنة عند النطق بلفظها ؟

٤ ـ كيف مطابقة اعتقاد القلب لمعناها حتى يوجب كشف ضره ؟

٥ ـ مامناسبة ذكره «انى كنت من الظالمين» مع ان التوحيد يوجب كشف الضرّ ؟

٦ ـــ هل يكفى المذنب اعترافه بالذنب ام لابد من التوبة والعزم فى المستقبل ؟

٧ ـــ ماهو السرّ فى ان كشف الضرّ وزواله يكون عند انقطاع الرجاء عن الخلق والتعلق بهم ؟

٨ ـــ ماالحيلة فى انصراف القلب عن الرجاء للمخلوقين والتعلق بهم بالكلية وتعلقه بالله تعالى ورجائه وانصرافه اليه بالكلية ؟ وماالسبب المعين على ذلك ؟

وقدوضّح شيخ الاسلام كل واحدة من هذه النقاط توضيحا كاملا ، وافاد واجاد . وتتجلى فيه خاصية اسلوبه الممتاز فى الجدل والنقاش وهى كثرة الاستدلال بآيات القرآن وسردها لتدعيم مايقول ، والتركيز على مبدأ التوحيد .

والدار السلفية اذتقدم هذا الكتيّب المفيد تريد ان توكد لقرائها الكرام انها تحاول بكل مالديها من الوسائل ان تزود المكتبة العربية والاسلامية بالكتب الدينية المفيدة وبخاصة من كتب تراث سلفنا الصالح اسهاما منها فى نشر الثقافة الاسلامية الصحيحة . وندعوالله تبارك وتعالى ان يجعل اعمالنا خالصة لوجهه ويوفقنا لمزيد من الاعمال النافعة ويقبلها منا .

ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم .

وصلى‌الله على النبى الكريم .

الراجى عفو ربه
مختار احمد الندوى
الرئيس العام
للدار السلفية

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل شيخ الاسلام

ابن تيمية ــقدس الله روحهــ عن قول النبي ﷺ :

« دَعْوَةُ أخي ذِي النُّون : ﴿ **لاإلـه الاّ أنْتَ سُبْحَانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِيْنَ** ﴾ مادَعا بها مكروبٌ الا فَرَّجَ اللهُ كُرْبَتَه »[1]

مامعنى هذه الدعوة ؟ .

ولِمَ كانت كاشفةً للكرب ؟

وهل لها شروطٌ باطنةٌ عند النُّطق بلفظها ؟

وكيف مطابقةُ اعتقاد القلب لمعناها ، حتى يُوجِب كشفَ ضره ؟

ومامناسبةُ ذكره : ﴿ **إنّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِيْنَ** ﴾ مع ان التوحيد يوجب كشفَ الضُّرّ ؟

وهل يكفيه اعترافه ام لابد من التوبة والعزم فى المستقبل ؟

---

(١) الحديث اخرجه احمد(١/١٧٠) والترمذى(٥/٥٢٩) والنسائى فى «عمل اليوم والليلة»(٦٥٦) والحاكم فى «المستدرك»(١/٥٠٥، ٢/٣٨٣) من حديث سعد بن ابى وقاص .

واخرجه البيهقى فى «شعب الايمان»(رقم٦٠٦ بتحقيقنا) وانظر تخريجه هناك .

وماهو السّرّ فى انّ كشفَ الضُّرّ وزوالَه يكون عند انقطاع الرّجاء عن الخلق والتعلق بهم ؟

ومالحيلة فى انصراف القلب عن الرجاء للمخلوقين والتعلق بهم بالكلية وتعلقه بالله تعالى ورجائه وانصرافه اليه بالكلية ، ماالسبب المعين على ذلك ؟ .

﴿ فأجاب ﴾ الحمد لله رب العالمين .

معنى الدعاء

لفظ « الدعاء والدعوة » فى القرآن يتناول معنيين :

دعاء العبادة .

ودعاء المسألة .

قالالله تعالى :

﴿ فَلاَتَدْعُ مَعَاللهِ إِلٰهًا آخَر فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذّبِيْنَ ﴾[٢]

وقال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَاللهِ إِلٰهًا آخَرَ لابُرْهَانَ لَه بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبّه إِنّه لاَيُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾[٣]

وقال تعالى :

---

(٢) سورة الشعراء(٢٦/٢١٣) .

(٣) سورة المومنون(٢٣/١١٧) .

﴿ وَلاَتَدْعُ مَعَ اللهِ إلهًا آخَرَ لاإِلهَ إلاّ هُوَ ﴾[4]

وقال :

﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُاللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾[5]

وقال :

﴿ إنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إلاّ إنَاثًا وَإنْ يَدْعُون إلاّ شَيْطَانًا مَّرِيْدًا ﴾[6]

وقال تعالى :

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقّ وَالَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِهِ لاَيَسْتَجِيْبُوْنَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إلاّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَاهُوَ بِبَالِغِهِ ﴾[7]

وقال تعالى :

﴿ وَ الَّذِيْنَ لاَيَدْعُوْنَ مَعَ اللهِ إلهًا آخَرَ وَلاَيَقْتُلُوْنَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إلاّ بِالْحَقِّ وَلاَيَزْنُوْنَ ﴾[8]

وقال فى آخر السورة :

﴿ قُلْ مَايَعْبَؤُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ ﴾[9]

---

(٤) سورة القصص(٢٨/٨٨) .

(٥) سورة الجن(٧٢/١٩) .

(٦) سورة النساء(٤/١١٧)

(٧) سورة الرعد(١٣/١٤)

(٨) سورة الفرقان(٢٥/٦٨)

(٩) ايضا(٢٥/٧٧)

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[14]

(المسألـــة والعبـــادة)

وكل سائلٍ راغبٍ راهبٍ فهو عابدٌ للمسئول ، وكل عابد لـه فهو ايضـا راغب وراهب يرجو رحمَتَه ويخافُ عذابه ، فكل عابد سـائل وكل سـائل عابد . فأحد الاسمين يتناولُ الآخرَ عند تجَرُّده عنه ، ولكن إذا جمع بينهما فانه يراد بـالسـائل الـذى يطلُبُ جلب المنفعـة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب . ويراد بالعـابـد من يطلب ذلـك بـامتثـال الأمر وانلم يكن فى ذلك صيغ سؤال .

(الخوف والرجـــاء)

والعابد الذى يريد وجهالله والنظر اليه هو ايضا راج خائف ، راغب راهب : يرغب فى حصول مراده ، ويرهب من فواته . قال تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾[15]

وقال تعالى :

---

(١٤) سورة البقرة(١٨٦/٢)

(١٥) سورة لانبياء(٩٠/٢١)

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[16]

ولا يتصور ان يخلوا داعٍ لله ـ دعاءَ عبادة او دعاء مسألة ـ من الرغب والرهب ، من الخوف والطمع .

ومايذكر عن بعض الشيوخ انه جعل الخوف والرجاء من مقامات العامة ، فهذا قد يفسر مراده بان المقرّبين يريدون وجه الله فيقصدون التلذذ بالنظر اليه . وان لم يكن هناك مخلوق يتلذذون به ، وهؤلاء يرجون حصول هذا المطلوب ويخافون حرمانه ، فلم يخلوا عن الخوف والرجاء لكن مرجُوّهم ومَخُوْفَهم بحسب مطلوبهم .

ومن قال من هؤلاء :

« لم أعبُدْكَ شوقًا الى جَنَّتِكَ ولاخَوْفًا مِنْ نَارِك »

فهو يظن ان الجنة اسم لما يتمتع فيه بالمخلوقات ، والنار اسم لما لاعذاب فيه الا الم المخلوقات ، وهذا قصورٌ وتقصير منهم عن فهم مُسمّى الجنة ، بل كل ماعده الله لأوليائه فهو من الجنة ، والنظر اليه هو من الجنة ، ولهذا كان افضل الخلق يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار ، ولما سأل بعض اصحابه عما يقول فى صلاته قال :

انى اسأل الله الجنة واعوذ بالله من النار ، اما انى لاأحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ ولاَدَنْدَنَةَ معاذ فقال :

« حَوْلَهَا نُدِنْدِنْ »[17]

---

(16) سورة السجدة(16/32)

(17) اخرجه ابن ماجة فى الاقامة(295/1رقم910) وفى الدعاء(1264/2رقم3847) وابن خزيمة فى «صحيحه»(358/1رقم725) من حديث ابى صالح عن ابى هريرة .

واخرجه ابوداود فى الصلاة(501/1رقم792) واحمد فى «المسند»(474/3، 74/5) فلم يذكرا الصحابى .

وقدانكر على من قال هذا الكلام يعنى اسألك لذة النظر الى وجهك[١٨] فريق من اهل الكلام ، ظنّوا ان الله لايتلذذ بالنظر اليه ، وانه لانعيم الا بمخلوق . فغلط هؤلاء فى معنى الجنة كما غلط اولئك ، لكن اولئك طلبوا مايستحق ان يطلب ، وهؤلاء انكروا ذلك .

(العزائم تنفسخ عند وجود الحقائق)

واما التألّم بالنار فهو امر ضرورىٌّ ، ومن قال : لو ادخلنى النّار لكنتُ راضيّا ، فهو عزم منه على الرضا ، والعزائم قدتنسخ عند وجود

---

(١٨) اخرج النسائى فى كتاب السهو من «المجتبى»(٥٤/٣) عن يحي بن حبيب بن عربى قال حدثنا حماد بن زيد قال حدثنا عطاء بن السائب عن ابيه قال صلّى بنا عمار بن ياسر صلاة فأوجز فيها ، فقال له بعض القوم لقد خفّفت او أوجزت الصلاة ؟ فقال : أنا على ذلك فقد دعوت فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله ﷺ فلما قام تبعه رجل من القوم ـــ هوابى غير انه كنى عن نفسه ـــ فسأله عن الدعاء ثم جاء فاخبر به القوم .

« اللهم بعلمك الغيبَ وقدرتك على الخلق أحْينى ماعلمت الحياةَ خيرا لى ، وتوفّنى اذا علمت الوفاة خيراً لى . اللهم واسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، واسألك كلمة الحق فى الرضا والغضب ، واسألك القصد فى الفقر والغنى ، واسألك نعيما لايَنفدً ، واسألك قرة عين لاتنقطع ، واسألك الرضا بعد القضاء ، واسألك بردَ العيش بعد الموت ، واسألك لذة النظر الى وجهك والشوق الى لقائك فى غير ضرّاء مضرة ولافتنة مُضِلّة .

اللهم زَيّنّا بزينة الايمان واجعلنا هداةً مهتدين » .

واخرجه الحاكم فى «المستدرك»(٥٢٤/١) وابن حبان(٥٠٩) وصححه الحاكم ووافقه الذهبى .

واخرجه النسائى ايضا(٥٥/٣) من طريق ابى هاشم الواسطى ، عن ابى مجلز عن قيس ابن عباد قال صلى عمار... فذكره ، ورواه احمد فى «المسند»(٢٦٤/٤) .

ورجال هذا الاسناد ثقات رجال الصحيح .

ولايلتفت الى انكار فريق من اهل الكلام لكلمات دعاء ثبتت عن النبى ﷺ .

الحقائق ، ومثل هذا يقع فى كلام طائفة مثل سمنون[19] الذى قال :

وليس لى فى سواكَ حَظٌّ   فكيف ماشئتَ فامتحِنّىْ

فابتلى بعسر البول فجعل يطوف على صبيان المكاتب ويقول : ادعوا لعمّكم الكذاب .

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾[20]

وبعض من تكلم فى علل المقامات جعل الحُبّ والرِّضا والخَوف والرّجاء من مقامات العامة بناء على مشاهدة القدر ، وان من شهد القدر[1] فشهد توحيد الأفعال حتى فنى من لم يكن وبقى من لم يزل ، يخرج عن هذه الأمور ، وهذا كلام مستدرك حقيقة وشرعا .

(ادعاء الصوفية المحو والفناء)

أما الحقيقة فان الحيّ لايتصور ان لايكون حساسًا مُحبًا لما يلائمه ،

---

(19) سمنون بن حمزة ــ ويقال سمنون بن عبدالله ــ ابولحسن الخواص .

سمى نفسه سمنونا الكذاب للواقعة المذكورة . صحب سريّا السقطى وابا احمد القلانسى وسوس ، وكان يتكلم فى المحبة بأحسن كلام ، وهو من كبار مشايخ الصوفية فى العراق ، توفى بعد الجنيد .

ترجمته فى «طبقات الصوفية»(١٩٥ـ١٩٩) ، «الحلية»(١٠/٣٠٩ـ٣١٤) ، «تاريخ بغداد»(٩/٢٣٤ـ٢٣٧) ، «الرسالة القشيرية»(١/١٣٣) ، «البداية والنهاية»(١١/١١٥) .

(20) سورة آل عمران(٣/١٤٣)

مبغضًا لماينافره . ومن قال ان الحى يستوى عنده جميعُ المقدورات فهو احد رجلين : إما انه لايتصوّرُ مايقولُ بل هو جاهلٌ ، وإما انه مكابرٌ معاندٌ ولوقُدِّرَ ان الانسان حصل له حالٌ أزال عقله ـــ سواء سمى اصطلاما او محوًا او فناءً او غشيًا او ضعفًا ـــ فهذا لم يسقط احساس نفسه بالكلية ، بل له احساس بما يلائمُهُ ومايُنافرُه ، وان سقط احساسه ببعض الأشياء فانه لم يسقط بجميعها .

فمن زعم ان المشاهد لتوحيد الربوبية يدخل الى مقام الجمع والفناء فلايشهد فرقًا فانه غالط ، بل لابد من من الفرق فانه امر ضرورىٌّ .

لكن اذا خرج عن الفرق الشرعى بقى فى الفرق الطبعى ، فيبقى متبعًا لهواه لامطيعًا لمولاه .

ولهذا لما وقعت « هذه المسألة » بين الجنيد وأصحابه ذكر لهم «الفرق الثانى» وهو : ان يفرق بين المأمور والمحظور ، وبين مايحبهالله ومايكرهه مع شهوده للقدر الجامع ، فيشهد الفرق فى القدر الجامع . ومن لم يفرق بين المأمور والمحظور خرج عن دين الاسلام .

وهؤلاء الذين يتكلمون فى الجمع لايخرجون عن الفرق الشرعى بالكلية ، وانخرجوا عنه كانوا كفارًا من شرّ الكُفّار ، وهم الذين يخرجون الى التسوية بين الرسل وغيرهم ، ثم يخرجون الى القول بوحدة الوجود ، فلا يفرقون بين الخالق والمخلوق ؛ ولكن ليس كُلّ هؤلاء يَنتهُون الى هذا الاحاد ، بل يُفَرّقُون من وجه دون وجه ، فيُطيعونالله ورسولَه تارةً ، ويعصُونالله ورسوله تارةً ، كالعصاة من اهل القبلة . وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع .

(الدعاء عبادة ومسألة)

والمقصود هنا : ان لفظ « الدعوة والدعاء » يتناول هذا وهذا ، قال الله تعالى :

﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[٢١]

وفى الحديث :

« افضل الذكر لااله الاّ الله ، وافضل الدعاء الحمد لله »

رواه ابن ماجة[٢٢] وابن ابى الدنيا .

وقال النبى ﷺ فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره :

« دعوة اخى ذى النون ﴿ لاإلَه إلاّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِيْنَ ﴾[٢٣] مادعا بها مكروب إلا فرج الله كربته » .

سماها «دعوة» لأنها تتضمن نوعى الدعاء . فقوله ﴿ لاإلـه إلاّ أَنْتَ ﴾ اعتراف بتوحيد الالهية . وتوحيد الالهية يتضمّن أحدَ نوعى الدعاء ، فان الاله هو المستحقُ لأن يُدْعى دعاءَ عبادة ودعاء مسألة ، وهوالله لااله الا هو .

---

(٢١) سورة يونس(١٠/١٠)

(٢٢) اخرجه ابن ماجة فى الادب(١٢٤٩/٢رقم٣٨٠٠) وابن ابى الدنيا فى «كتاب الشكر»(١١٣رقم١٠٢) كما اخرجه الترمذى فى الدعوات(٢٦٢/٥رقم٣٣٨٣) والنسائى فى «عمل اليوم والليلة»(٨٣١) والحاكم فى «المستدرك»(٤٩٨/١-٥٠٣) وابن حبان فى «صحيحه»(٢٣٢٦ـ موارد) والبغوى فى «شرح السنة»(٤٩/٥) وقال الالبانى : حسن .

والحديث فى «شعب الايمان» للبيهقى (الشعبة٣٣) واستوفينا تخريجه هناك .

(٢٣) سورة الانبياء(٢١/٨٧)

وقد مرّ تخريج الحديث فى اول الكتاب .

(وجوه مختلفة للمسألة)

وقوله : ﴿ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِيْنَ ﴾ اعتراف بالذنب ، وهو يتضمّن طلب المغفرة ، فان الطالب السائل تارةً يسأل بصيغة الطلب ، وتارةً يسأل بصيغة الخبر ، اما بوصف حاله ، واما بوصف حال المسؤول ، وإما بوصف الحالين . كقول نوح عليه السلام :

﴿ رَبِّ إِنِّى أَعُوْذُبِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَالَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَ إِلاَّ تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُنْ مِّنَ الْخَاسِرِيْنَ ﴾[٢٤]

فهذا ليس صيغة طلب ، وانما هو إخبارٌ عنالله انه إن لمْ يَغفِرْ له ويَرْحَمْهُ خَسِر .

ولكن هذا الخبر يتضمّن سؤال المغفرة ، وكذلك قول آدم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ ﴾[٢٥]

هو من هذا الباب ، ومن ذلك قول موسى عليه السلام :

﴿ رَبِّ إِنِّى لَمَا أَنْزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيْرٌ ﴾[٢٦]

فان هذا وصف لحاله بانه فقيرٌ الى ماأنزلالله اليه من الخير ، وهو يتضمّن لسؤالالله انزالَ الخير اليه .

---

(٢٤) سورة هود(١١/٤٧)

(٢٥) سورة الاعراف(٧/٢٣) .

(٢٦) سورة القصص(٢٨/٢٤)

وقدروى الترمذى[٢٧] وغيره عن النبى ﷺ انه قال :

« مَنْ شَغَلَهُ قِراءةُ الْقُرْآنِ عَنْ ذِكْرِىْ وَمَسْأَلَتِى اعْطَيْتُه افضَلَ مَاأُعْطِى السَّائِلِيْنَ » .

رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

ورواه مالك بن الحويرث[٢٨] وقال :

« مَنْ شَغَلَــه ذِكْرِىْ عَنْ مَسْــأَلَتِى أعطَيْتُــهُ أفضَــلَ مَاأُعْطِى السَّائِلِيْنَ »

وأظن البيهقى رواه مرفوعا بهذا اللفظ .

وقدسئل سفيان بن عيينة[٢٩] عن قوله :

« أفضل الدعاء يوم عرفة لااله الاالله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير »

---

(٢٧) فى كتاب فضائل القرآن من «جامعه»(١٨٤/٥رقم٢٩٢٦) وفيه :

«من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى....»

والحديث اخرجه البيهقى فى «شعب الايمان»(٥٦٧-٥٦٨ بتحقيقنا) وراجع تخريجه هناك .

(٢٨) الصواب مالك بن الحارث . وهو تابعى روى عنه منصور . وراجع «شعب الايمان»(رقم٥٧٠)

(٢٩) انظر قول سفيان فى «شان الدعاء» للخطابى(٢٠٧) ، و«فتح البارى»(١٤٧/١١) وراجع «شعب الايمان» .

اما الحديث : افضل الدعاء دعاء يوم عرفة الخ فأخرجه الترمذى فى الدعوات(٥٧٢/٥رقم٣٥٨٥) عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده .

واخرجه مالك فى «الموطا»(٤٢٢) مرسلا .

فذكر هذا الحديث وأنشد قول أمية بن ابي‌الصلت يمدح ابن جدعان .

أاذكر حَــاجتى ام قَــدْكَفَـــانِى حِبَــاؤُكَ؟ اِنَّ شِيْمَتَــكَ الحِبَــاءُ
اذا أَثْنَى عَلَيْــكَ الْمَرْءُ يــومــا كفَــاهُ مِن تعرُّضِــه الثنَــاء

قال : فدذا مخلوق يخاطب مخلوقا فكيف بالخالق تعالى .

ومن هذا الباب الدعاء المأثور عن موسى عليه السلام :

« اَللّهُمَّ لَــكَ الحَمْــدُ ، وإلَيْــكَ الْمُشْتَكَى ، وانتَ الْمُسْتَعَانُ ، وَبِكَ الْمُسْتَغَاثُ ، وعَلَيْكَ التُّكْلاَنُ »[٣٠]

فهذا خبر يتضمّن السؤال .

(احسن طريق للسؤال)

ومن هذا الباب قول ايوب عليه السلام :

﴿ أَنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ ﴾[٣١]

فوصف نفسه ووصف ربـه بوصف يتضمن سؤال رحمتـه بكشف ضُرّه ، وهى صيغة خبر تضمّنت السؤال . وهذا من بـاب حسن الأدب فى السؤال والدعاء ، فقول القائل لمن يُعَظِّمُه ويرغب اليه : انا جـائع ، انـا مريض حسن ادب فى السؤال . وان كان فى قوله : اَطْعِمْنى ودَاونى ونحو ذلك ممـا هو بصيغة الطلب ، طلبٌ جازمٌ من المسؤول ؛ فذاك فيـه إظهـار حـالـه وإخبار على وجه الذُّلّ والافتقار المتضمّن لسوال الحال ، وهذا فيـه الرغبـة

---

(٣٠) لم‌اجد من حرّجه .

(٣١) سورة الانبياء(٢١/٨٣) .

التامة والسؤال المحض بصيغة الطلب .

وهذه الصيغة «صيغة الطلب والاستدعاء» اذا كانت لمن يحتاج اليه الطالبُ ، او ممن يقدرُ على قهر المطلوب منه ونحو ذلك ، فانها تقالُ على وجه الأمر : إما لما فى ذلك من حاجة الطالب ، واما لما فيه من نفع المطلوب . فاما اذا كانت من الفقير من كل وجه للغَنِىِّ من كل وجه فانها سؤال محضٌ بتذلُّل وافتقار واظهار الحال .

ووصف الحاجة والافتقار هو سؤال بالحال ، وهو ابلغ من جهة العلم والبيان .

وذلك اظهر من جهة القصد والارادة ، فلهذا كان غالب الدعاء من القسم الثانى ، لأن الطالب السائل يتصوّر مقصوده ومرادَه فيطلبه ويسأله فهو سؤال بالمطابقة والقصد الأول ، وتصريح به باللفظ ، وان لم يكن فيه وصف لحال السائل والمسئول ، فان تضمن وصف حالهما كان اكمل من النوعين ، فانه يتضمن الخبر والعلم المقتضى للسؤال والاجابة ، ويتضمن القصد والطلب الذى هو نفس السؤال ، فيتضمّن السؤال والمقتضِى له والاجابة كقول النبى ﷺ لأبى بكر الصديق رضىالله تعالى عنه لما قال : له علمنى دعاء ادعو به فى صلاتى ، فقال :

« قُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيْرًا ، وَلاَيَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ ، فَاغْفِرْلِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ ، وَارْحَمْنِي اِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيْم »

اخرجاه فى الصحيحين[٣٢].

---

(٣٢) فاخرجه البخارى فى الاذان(٢٠٣/١) وفى الدعوات(١٥٠/٧) وفى التوحيد(١٦٨/٨) ومسلم فى الذكر(٢٠٧٨رقم٢٧٠٥) .

واخرجه ايضا احمد فى «المسند»(٧/١) والترمذى فى الدعوات(٥٤٣/٥رقم٣٥٣١) والنسائى فى السهو(٥٣/٣) وابن ماجة فى الدعاء(١٢٦١/٢رقم٣٨٣٥) وابويعلى فى «مسنده»(٧/١نهنا٣رقم٣١،٣٨رقم٣٢) .

فهذا فيه وصف العبد لحال نفسه المقتضى حاجته الى المغفرة ، وفيه وصفُ ربّه الذى يُوجِبُ انه لايقدرُ على هذا المطلوب غيرُه ، وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبه ، وفيه بيان المقتضى للاجابة وهو وصف الربّ بالمغفرة والرحمة فذا ونحوه اكملُ انواع الطلب .

(خصائص ادعية القرآن)

وكثير من الأدعية يتضمن بعض ذلك . كقول موسى عليه السلام :

﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْلَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِيْنَ ﴾[٣٣]

فهذا طلبٌ ووصفٌ للمولى بما يقتضى الاجابة . وقوله :

﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْلِى ﴾[٣٤]

فيه وصف حال النفس والطلب . وقوله :

﴿ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيْرٌ ﴾[٣٥]

فيه الوصف المتضمن للسؤال بالحال ، فهذه انواع لكل نوع منها خاصة .

---

(٣٣) سورة الاعراف(١٥٥/٧)

(٣٤) سورة القصص(١٦/٢٨)

(٣٥) سورة القصص(٣٤/٢٨)

(لماذا كان دعاء ذى النون بصيغة الخبر ؟)

يبقى ان يقال فصاحب الحوت ومن اشبهه لماذا ناسبَ حالَهم صيغة الوصف والخبر دون صيغة الطلب ؟ .

فيقال : لأن المقام اعتراف بان ماأصابنى من الشركان بذنبى . فأصل الشَّرِّ هو الذنبُ ، والمقصود دفعُ الضُّرِّ ، والاستغفار جاء بالقصد الثانى ، فلم يذكر صيغةَ طلب كشف الضُّرِّ لاستشعاره انه مسيء ظالمٌ ، وهو الذى ادخل الضُّرَّ على نفسه ، فناسب حالَه ان يذكر مايرفع سببه من الاعتراف بظلمه ، ولم يذكر صيغةَ طلب المغفرة لأنه مقصودٌ للعبد المكروب بالقصد الثانى ؛ بخلاف كشف الكُرب فانه مقصود له فى حال وجوده بالقصد الأول ، اذا النفس بطبعها تطلُبُ ماهى محتاجةٌ اليه من زوال الضرر الحاصل من الحال قبل طلبها زوالَ ماتخاف وجودَه من الضرر فى المستقبل بالقصد الثانى ، والمقصود الأول فى هذا المقام هو المغفرة وطلب كشف الضر ، فهذا مقدم فى قصده وارادته ، وأبلغ ماينال به رفع سببه فجاء بما يحصل مقصوده .

(تفسير « سبحانك »)

وهذا يتبيّنُ بالكلام على قوله : ﴿ **سبحانك** ﴾ فان هذا اللفظ يتضمن تعظيم الرب وتنزيهه ، والمقام يقتضى تنزيهه عن الظلم والعقوبة بغير ذنب ، يقول : انت مُقَدَّسٌ ومُنَزَّهٌ عن ظُلمى وعقوبتى بغير ذنب ، بل انا الظالم الذى ظلمت نفسى . قال تعالى :

﴿ وَمَاظَلَمْنَاهُمْ وَلِكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْن ﴾[٣٦]

---

(٣٦) سورة النحل(١١٨/١٦)

وقال تعالى :

﴿ وَمَاظَلَمْنَاهُمْ وَلِكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾[٣٧]

وقال :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِيْنَ ﴾[٣٨]

وقال آدم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾[٣٩]

وكذلك قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح الذى فى مسلم فى دعاء الاستفتاح :

« اللهُمّ انتَ المَلِكُ لااله إلاّ أَنْتَ ، أنتَ رَبّى وأنَا عَبْدُكَ ، ظلَمْتُ نَفسِى واعتَرَفْتُ بِذَنْبِى ، فَاغْفِرْلِى ذُنُوبِى جميعًا فانّه لايَغْفِرُ الذُّنُوْبَ إلاّ أنتَ »[٤٠].

---

(٣٧) سورة هود(١٠١/١١)

(٣٨) سورة الزحرف(٧٦/٤٣)

(٣٩) سورة الاعراف(٢٣/٧)

(٤٠) احرحه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين(٥٣٤/١ـ٥٣٥رقم٧٧١) عن على بن ابى طالب عن رسول‌الله ﷺ انه كان اذا قام الى الصلاة قال

«وجّهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما انا من المشركين ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك امرت وانا من المسلمين ، اللهم انت الملك لااله الا انت انت ربى وانا عبدك ، ظلمت نفسى واعترفت بذنبى فاغفرلى ذنوبى جميعا انه لايغفر الذنوب إلا أنت واهدنى لاحسن الاخلاق لايهدى لاحسنها الا أنت واصرف عنى سيّها لايصرف عنى سيّئها الا انت لبّيك وسعديك ، والخير كله فى يديك ، والشر ليس اليك انابك واليك ، تباركت وتعاليت ، استغفرك واتوب اليك» الحديث

ورواه ابوداود(٤٨١/١رقم٧٦٠) والترمذى(٤٨٥/٥رقم٣٤٢١) والنسائى(١٣٠/٢) والدارمى(٢٨٢) واحمد(٩٤/١،١٠٢) وابو يعلى فى «مسنده»(٢٤٥/١رقم٢٨٥،٤٣٣رقم٥٧٤)

وفى صحيح البخارى :

« سَيّدُ الإسْتِغْفَارِ أن يَقُولَ العبْدُ :
اللهُمّ أنتَ رَبّى لااله إلاّ أنْتَ خَلَقْتَنِي وَانَا عَبْدُكَ ، وأنَا عَلى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَااسْتَطَعْتُ ، اعُوذُبِكَ مِنْ شَرّ مَاصَنَعْتُ ، أبُوْءُلَكَ بِنعْمَتِكَ عَلىّ ، وأبُوْءُ بِذَنْبِى فَاغْفِرْلِى فانّه لايَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاّ أنتَ » .
مَنْ قَالَهَا إذَا أصْبَحَ مُوقِنًا بها فَماتَ من يومِه دخَلَ الجَنّة ، ومن قَالَهَا اذا أمْسَى موقنًا بها فماتَ من ليلَته دخلَ الجَنّة[٤١] .

فالعبد عليه ان يعترف بعدل الله واحسانه فانه لايظلم الناس شيئا فلايعاقب احد الا بذنبه ، وهو يحسن اليهم فكل نقمة منه عدل وكل نعمة منه فضل .

(معنى «لااله الا أنت»)

فقوله : ﴿ لااله إلاّ أنت ﴾ فيه اثباتُ انفراده بالالهية ، والالهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته ، ففيها اثبت احسانه الى العبد فان «الاله» هو المألوه ، والمألوه هو الذى يستحق ان يعبد ، وكونه يستحق ان يعبد هو بما اتصف به من الصفات التى تستلزم ان يكون هو المحبوب غاية الحب ، المخضوع له غاية الخضوع ؛ والعبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل .

---

(٤١) فى الدعوات(١٤٥/٧،١٥٠)

وراجع «الصحيحة»(١٧٤٧) والحديث فى «شعب الايمان» للبيهقى(رقم٦٥٨) فراجع تخريجه هناك .

وقوله : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ يتضمّن تعظيمَه وتنزيهه عن الظلم وغيره من النقائص ، فان التسبيح وان كان يقال : يتضمّن نفى النقائص ، وقدروى فى حديث مرسل[٤٢]من مراسيل موسى بن طلحة عن النبى ﷺ فى قول العبد : سبحان‌الله .

« انها براءةالله من السوء » .

فالنفى لايكون مدحا الا اذا تضمن ثبوتا والا فالنفى المحض لامدح فيه ، ونفىُ السوء والنقص عنه يستلزمُ اثباتَ محاسنه وكماله ، ولله الأسماء الحسنى .

وهكذا عامة مايأتى به القرآن فى نفى السوء والنقص عنه يتضمن اثبات محاسنه وكماله . كقوله تعالى :

﴿ الله لاإلَـه إلاّ هُـوَ الْحَىُّ الْقَيُّـوْم لاَتَـأخُـذُهُ سِنَـةٌ وَّلاَنَوْم ﴾[٤٣]

فنفى اخذ السِّنَةِ والنومِ له يتضمن كمالَ حياته وقَيُّوميّتِهِ وقوله :

﴿ وَمَامَسَّنَا مِن لُّغُوْبٍ ﴾[٤٤]

يتضمن كمال قدرته ، ونحو ذلك . فالتسبيح المتضمن تنزيهه عن السوء ، ونفى النقص عنه يتضمن تعظيمه . ففى قوله : ﴿سُبْحَانَكَ ﴾ تبرئته من الظلم ، واثبات العظمة الموجبة له براءته من الظلم ، فان الظالم انما يظلم لحاجته الى الظلم او لجهله ، والله غنىٌّ عن كل شيء ، عليم بكل شيء ، وهو غنى بنفسه ، كل ماسواه فقير اليه ، وهذا كمال العظمة .

---

(٤٢) اخرجه ابن جرير فى «تفسيره»(٢/١٥)

(٤٣) سورة البقرة(٢/٢٥٥)

(٤٤) سورة ق(٥٠/٣٨)

(افضل الكلام عندالله)

وايضا ففى هذا الدعاء التهليلُ والتسبيحُ فقوله : ﴿ لااله الاّ انت ﴾ تهليل . وقوله : ﴿ سبحانك ﴾ تسبيح . وقدثبت فى الصحيح(٤٥)عن النبى ﷺ انه قال :

« افضل الكلام بعد القرآن اربع : وهن من القرآن سبحانالله ، والحمدلله ، ولااله الاالله ، والله اكبر » .

والتحميد مقرون بالتسبيح وتابعٌ له ، والتكبير مقرونٌ بالتهليل وتابع له .

وفى الصحيح(٤٦)عن النبى ﷺ انه سئل اى الكلام افضل ؟ قال :

« مَااصْطَفىالله لَملائكَته سبحَانالله وبحمده » .

وفى الصحيحين(٤٧)عن النبى ﷺ نه قال :

« كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان الى الرحمن : سبحانالله وبحمده ، سبحانالله العظيم » .

---

(٤٥) اخرجه مسلم فى الآداب من «صحيحه»(١٦٨٥/٢) من حديث سمرة بن جندب ، ولفظه :

«احب الكلام الىالله اربع....» ورواه البيهقى فى «شعب الايمان»(رقم٥٨٥ـبتحقيقنا) وراجع تخريجه هناك .

(٤٦) راجع مسلم(٢٠٩٣/٣رقم٢٧٣١) وراجع «شعب الايمان»(رقم٥٨٦)

(٤٧) اخرجه البخارى فى الدعوات(١٦٨/٧) وفى الايمان والنذور(٢٢٩/٧) وفى التوحيد(٢١٩/٨) ومسلم فى الذكر(٢٠٧٢/٣رقم٢٦٩٤) ورواه البيهقى فى «شعب الايمان»(رقم٥٨٥) وراجع تخريجه فيه .

وفى القرآن :

﴿ فَسَبِّح بِحَمْدِ رَبِّك ﴾[٤٨]

وقالت الملائكة :

﴿ ونَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾[٤٩]

وهاتان الكلمتان احداهما مقرونة بالتحميد ، والأخرى بالتعظيم ، فانا قدذكرنا أن التسبيح فيه نفى السوء والنقائص المتضمن اثبات المحاسن والكمال ، والحمد انما يكون على المحاسن ، وقرن بين الحمد والتعظيم كما قرن بين الجلال والاكرام ، إذ ليس كل مُعظّم محبوبا محمودًا ، ولاكل محبوب محمودا معظما ، وقد تقدم ان العبادة تتضمن كمال الحب المتضمن معنى الحمد ، وتتضمن كمال الذل المتضمن معنى التعظيم ، ففى العبادة حبه وحمده على المحاسن ، وفيها الذل له الناشيء عن عظمته وكبريائه . ففيها اجلاله واكرامه . وهو سبحانه المستحق للجلال والاكرام ، فهو مستحق غاية الاجلال وغاية الاكرام .

ومن الناس من يحسب ان «الجلال» هو الصفات السلبية و«الاكرام» الصفات الثبوتية ، كما ذكر ذلك الرازى ونحوه والتحقيق ان كليهما صفات ثبوتية ، واثبات الكمال يستلزم نفى النقائص ، لكن ذكر نوعى الثبوت وهو ما يستحقُّ ان يُحَبَّ وما يستحقُّ ان يُعَظَّم : كقوله :

﴿ إنّ اللّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيْدُ ﴾[٥٠]

وقول سليمان عليه السلام :

---

(٤٨) سورة النصر(٣/١١٠)

(٤٩) سورة البقرة(٣٠/٢)

(٥٠) سورة لقمان(٢٦/٣١)

﴿ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾[٥١]

وكذلك قوله :

﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾[٥٢]

فان كثيرًا ممن يكون له الملك والغنى لايكون محمودًا بل مذمومًا ، إذ الحمدُ يتضمن الاخبار عن المحمود بمحاسنة المحبوبة ، فيتضمن اخبارًا بمحاسن المحبوب محبة له .

وكثير ممن له نصيب من الحمد والمحبة يكون فيه عجزٌ وضعفٌ وذُلٌّ ينفى العظمة والغنى والملك . فالاول يُهاب ويُخاف ولايُحَب . وهذا يُحبّ ويُحمد ، ولايُهاب ولايُخاف . والكمال اجتماع الوصفين . كما ورد فى الأثر :

« ان المؤمن رزق حلاوة ومهابة »[٥٣]

وفى نعت النبى ﷺ :

« كان من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة احبه »[٥٤]

فقرن التسبيح بالتحميد ، وقرن التهليل بالتكبير ، كما فى كلمات الاذان . ثم ان كل واحد من النوعين يتضمن الآخر اذا أفرد : فان

---

(٥١) سورة النمل(٢٧/٤٠)

(٥٢) سورة التغابن(٦٤/١)

(٥٣) لم أجد من خرّجه .

(٥٤) جاء فى حديث على رضى‌الله عنه فى نعت النبى ﷺ . اخرجه البيهقى فى «دلائل النبوة»(١/٢٧٠) واخرجه الترمذى(٥/٥٩٩رقم٣٦٣٨) وقال : هذا حديث حسن غريب ليس اسناده بمتصل .

التسبيح والتحميد يتضمن التعظيم ؛ ويتضمن اثبات مايحمد عليه ، وذلك يستلزم الالهية . فان الالهية تتضمن كونه محبوبا ؛ بل تتضمن انه لايستحق كال الحب الا هو . والحمد هو الاخبار عن المحمود بالصفات التى يستحق ان يحب فالالهية تتضمن كال الحمد ، ولهذا كان «الحمدلله» مفتاح الخطاب . وكل امر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو اجذم[55]

و «سبحان الله» فيها اثبات عظمته كما قدمناه ، ولهذا قال :

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾[56]

وقد قال النبى ﷺ :

« اجعلوها فى ركوعكم »

رواه اهل السنن[57].

وقال :

« اما الركوع فعظموا فيه الرب واما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فقمن ان يستجاب لكم »

رواه مسلم[58].

---

(55) حديث «كل امر ذى بال لا يبدأ بالحمد لله فهو اجذم»

رواه ابوداود فى «سننه»(١٧٢/٥رقم٤٨٤٠) وابن ماجه وابن حبان .

وهو عند البيهقى فى «شعب الايمان»(الشعبة٣٣) فراجعه .

(56) سورة الواقعة(٥٦/٧٤،٩٦)

(57) رواه ابوداود فى «سننه»(٥٤٢/١رقم٨٦٩) وابن ماجه(٢٨٧/١رقم٨٨٧) واحمد فى «المسند»(١٥٥/٤) والحاكم(٤٧٧/٢) والبيهقى فى «سننه»(٨٦/٢) .

(58) فى الصلاة(٣٤٨/١رقم٤٧٩) من حديث ابن عباس =

فجعل التعظيم فى الركوع اخص منه بالسجود ؛ والتسبيح يتضمن التعظيم .

ففى قوله «سُبْحَانَ‌الله وَبِحَمْدِهِ» اثباتُ تنزيهه وتعظيمه والهيته وحده . واما قوله : « لااله الاالله والله‌اكبر » ففى لااله الاالله اثباتَ محامده فانها كلها داخلة فى اثبات الهيته وفى قوله : « الله‌اكبر » اثبات عظمته فان الكبرياء تتضمنُ العظمةَ ولكن الكبرياء اكمل .

ولهذا جاءت الالفاظ المشروعة فى الصلاة والأذان بقول : « الله‌اكبر »فان ذلك اكمل من قول الله اعظم ، كماثبت فى الصحيح[٥٩]عن النبي ﷺ انه قال :

« يقول‌الله تعالى : الكبرياء ردائي والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحداً منها عذبته »

فجعل العظمة كالازار ، والكبرياء كالرداء ، ومعلوم ان الرداء اشرف ، فلماكان‌التكبير ابلغ من التعظيم صرح بلفظه ، وتضمن ذلك التعظيم ، وفى قوله : سبحان‌الله ، صرح فيها بالتنزيه من السوء المتضمن للتعظيم ، فصار كل من الكلمتين متضمنا معنى الكلمتين الأخريين إذا أُفردتا ، وعند الاقتران تُعطى كل كلمة خاصيتها .

= واخرجه ايضًا ابوداود(١/٥٤٥رقم٨٧٦) والنسائى(٢/١٨٩ـ١٩٠؛٢١٧ـ٢١٨) واحمد فى «المسند»(١/٢١٩) والدارمى(٣٠٤) والحميدى فى «مسنده»(١/٢٢٨رقم٤٨٩) وعبدالرزاق فى «مصنفه»(٢/١٤٥رقم٢٨٣٩) وابن ابى‌شيبة فى «مصنفه»(١/٢٤٩) والبيهقى فى «سننه»(٢/٨٧ـ٨٨)

واخرجه ابن خزيمة فى «صحيحه»(١/٢٧٦رقم٥٤٨) وابويعلى فى «مسنده»(٤/٢٧٥رقم٢٣٨٧) .

(٥٩) رواه مسلم فى «صحيحه» فى البر(٣/٢٠٢٣رقم٢٦٢٠)

اخرجه ابوداود فى اللباس(٤/٣٥٠رقم٤٠٩٠) وابن ماجه فى «الزهد»(٢/١٣٩٧رقم٤١٧٤) واحمد فى «المسند»(٢/٣٧٦،٤١٤،٤٢٧،٤٤٢) .

وهذا كما ان كل اسم من اسماءالله فانه يستلزم معنى الاخر ؛ فانه يدل على الذات ، والذات تستلزم معنى الاسم الآخر ، لكن هذا باللزوم . واما دلالة كل اسم على خاصيته وعلى الذات بمجموعها فبالمطابقة ، ودلالتها على احدهما بالتضمن .

فقول الداعي :﴿ لااله الاانت سبحانك ﴾ يتضمن معنى الكلمات الاربع اللاتى هن افضل الكلام بعد القران . وهذه الكلمات تتضمن معانى اسماءالله الحسنى وصفاته العليا ففيها كمال المدح .

وقوله : ﴿ انى كنت من الظالمين ﴾ فيه اعتراف بحقيقة حاله ، وليس لأحد من العباد ان يُبَرِّئ نفسه عن هذا الوصف ، لاسيما فى مقام مناجاته لربه . وقدثبت فى الصحاح[٦٠] عن النبى ﷺ انه قال :

« لاينبغى لعبد ان يقول انا خير من يونس بن متى »

وقال :

« من قال : انا خير من يونس ابن متى فقد كذب »[٦١]

فمن ظن انه خير من يونس بحيث يعلم انه ليس عليه ان يعترف بظلم نفسه فهو كاذب ، ولهذا كان ساداتُ الخلائق لايفضلون انفسهم على يونس فى هذا المقام ، بل يقولون : كما قال ابوهم آدم وخاتمهم محمد ﷺ .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

---

(٦٠) اخرجه البخارى فى الأنبياء(١٣٢/٤-١٣٣) ومسلم فى الفضائل(١٨٤٦/٤) عن ابن عباس وابى هريرة واخرجه ايضًا ابوداود فى «السنة»(٥١/٥رقم٤٦٦٩) عن ابن عباس

واخرجه البخارى(١٣٢/٤) والنسائى فى «الكبرى»(تحفة الاشراف٤٥/٧) من حديث ابن مسعود .

(٦١) اخرجه احمد(٤٥١/٢) والحاكم فى «المستدرك»(٤٨٥/٢) من حديث ابى هريرة ، وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

فصـــــل
(لم كانت كاشفة للكرب ؟)

واما قول السائل : لم كانت موجبة لكشف الضُّر ؟ فذلك لأن الضُّر لا يكشفه الا الله . كما قال تعالى :

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَرَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾[1]

والذنوب سبب للضر ، والاستغفار يزيل اسبابه كما قال تعالى :

﴿ وَمَاكَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَاكَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[2]

فاخبر انه سبحانه لا يعذب مستغفرًا . وفي الحديث :

« مَنْ أَكْثَرَ الاسْتَغفَار جعلَ اللهُ له من كلّ هَمّ فَرَجًا ، من كُلّ ضِيْقٍ مَخْرَجًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَيَحْتَسِبْ »[3]

---

(١) سورة يونس(١٠/١٠٧)

(٢) سورة الانفال(٨/٣٣)

(٣) حديث ضعيف اخرجه احمد والحاكم ، وانظر تخريجه في «شعب الايمان» للبيهقي(رقم٦٣٦)

وقال تعالى :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوْ عَنْ كَثِيرٍ ﴾[٤]

فقوله : ﴿انى كنت من الظالمين﴾ اعتراف بالذنب وهو استغفار ، فان هذا الاعتراف متضمن طلب المغفرة .

وقوله : ﴿لااله الاّ انت﴾ تحقيق لتوحيد الالهية . فان الخير لاموجب له الا مشيئةالله ، فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ، والمعوق له من العبد هو ذنوبه ، وماكان خارجًا عن قدرة العبد فهو من الله ، وان كانت افعالُ العباد بقدَرالله تعالى ، لكن الله جعلَ فعلَ المأمور وترك المحظور سببًا للنّجاة ، والسعادة ، فشهادةَ التوحيد تفتحُ باب الخير ، والاستغفار من الذنوب يُغْلِقَ باب الشر .

(الرجاء من الله وحده)

ولهذا ينبغى للعبد ان لا يُعَلّق رجاءَه الا بالله ، ولا يخاف من الله ان يظلمه : فان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون ، بل يخاف ان يَجزيه بذنوبه ، وهذا معنى ماروى عن على رضى الله عنه انه قال : لا يَرْجُوَنَّ عبدٌ الا ربّه ولا يخافنّ الا ذنبَه .

وفى الحديث المرفوع الى النبى ﷺ انه دَخَلَ على مريض فقال :

« كيف تجدك ؟» فقال : ارجوالله واخافَ ذنوبى ، فقال : « مااجتمعا فى قلب عبدٍ فى مثل هذا الموطنِ الا

---

(٤) سورة الشورى(٤٢/٣٠)

أعطاهُاللهُ مايرجو وآمنه مما يخافُ »[٥]

فالرجاء ينبغى ان يتعلق بالله ، ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله ، فان تعليق الرجاء بغيرالله اشراك ، وان كان الله قد جعل لها اسبابا فالسبب لا يستقلّ بنفسه ، بل لابدّ له من معاون ، ولابد ان يمنع المعارض المعوق له وهو لايحصل ويبقى الا بمشيئةالله تعالى .

ولهذا قيل : الالتفات الى الاسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب ان تكون اسبابا نقصٌ فى العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدحٌ فى الشرع . ولهذا قال الله تعالى :

﴿ فَاِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَاِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾[٦]

فامر بأن تكون الرغبة اليه وحده ، وقال :

﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِيْنَ ﴾[٧]

فالقلب لا يتوكل الا على من يرجوه ، فمن رجا قُوّته أو عملَه أو علمَه أو حالَه أو صَديقَه أو قرابتَه أو شيخَه أو ملِكَه أو مالَه غيرَناظر الى الله كان فيه نوعُ توكُّل على ذلك السبب ، ومارجا احدٌ مخلوقًا أو توكَّلَ عليه الاّ خابَ ظنُّه فيه فانه مشرك :

﴿ وَمَنْ يُّشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أو تَهْوِىْ بِهِ الرِّيْحُ فِى مَكَانٍ سَحِيْقٍ ﴾[٨]

---

(٥) اخرجه الترمذى وابن ماجة وابويعلى والبيهقى فى «شعب الايمان» (الشعبة١٢) وراجع تخريجه فيه .

(٦) سورة الم نشرح(٨،٧/٩٤)

(٧) سورة المائدة(٢٣/٥)

(٨) سورة الحج(٣١/٢٢)

وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ، ويرجوهم ، فيحصل له رعبٌ كما قال تعالى :

﴿ سَنُلْقِيْ فِي قُلُوْبِ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا الرُّعْبَ بِمَاأَشْرَكُوْا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطانًا ﴾(٩)

والخالص من الشرك يحصل له الأمن كما قال تعالى :

﴿ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَلَمْ يَلْبِسُوْا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُوْنَ ﴾(١٠)

وقدفسر النبي ﷺ الظلم هنا بالشرك . ففى الصحيح(١١) عن ابن مسعود ان هذه الآية لمانزلت شق ذلك على اصحاب النبي ﷺ وقالوا : أيُّنا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبي ﷺ :

« انما هذا الشرك ، الم تسمعوا الى قول العبد الصالح : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ ﴾(١٢) ؟ »

وقال تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُوْنِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوْنَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِيْنَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ وَلَوْيَرَى الَّذِيْنَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيْدُ الْعَذَاب ○ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِيْنَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِيْنَ

---

(٩) سورة آل عمران(١٥١/٣)

(١٠) سورة الانعام(٨٢/٦)

(١١) اخرجه البخاري فى الانبياء(١١٢/٤، ١٣٧) ومسلم فى الايمان(١١٤/١رقم١٢٤) واحمد فى «مسنده»(٣٧٨/١، ٤٢٤، ٤٤٤) .

(١٢) سورة لقمان(١٣/٣١)

اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ○ وَقَالَ الَّذِيْنَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذلِكَ يُرِيْهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِم وَمَاهُمْ بِخَارِجِيْنَ مِنَ النَّار ﴾[١٣]

وقال تعالى :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِيْنَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُوْنَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَتَحْوِيْلا ○ أُولئكَ الَّذِيْنَ يَدْعُونَ يَبْتَغُوْنَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيْلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُوْنَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوْرًا ﴾[١٤]

ولهذا يذكرالله الأسباب . ويأمر بأن لايُعْتمد عليها ، ولايُرْجى الاالله ، قال تعالى لما أنزل الملائكة :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إلاّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إلاّ مِنْ عِنْدِاللهِ الْعَزِيْزِ الْحَكِيْمِ ﴾[١٥]

وقال :

﴿ إِن يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَاالَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ ﴾[١٦]

---

(١٣) سورة البقرة(٢/١٦٥ـ١٦٧)

(١٤) سورة الاسراء(١٧/٥٦ـ٥٧) .

(١٥) سورة آل عمران(٣/١٢٦)

(١٦) ايضا(٣/١٦٠)

(الدعاء لايصلح الا لله)

وقدقدمنا ان الدعاء نوعان :

دعاء عبادة . ودعاء مسألة .

وكلاهما لا يصلح الالله ، فمن جعلَ معالله الهًا آخر قعد مذمومًا مخذولاً . والراجى سائلٌ طالبٌ فلايصلُحُ أن يرجو الاّالله ، ولا يسأل غيره ، ولهذا قال النبي ﷺ فى الحديث الصحيح :

« ماأتاك من هذا المال وانتَ غيرُ سائلٍ ولامُشْرِفٍ فخذه ، ومالا فلا تتبعه نفسك »[١٧]

فالمشرفُ الذى يستشرفُ بقلبه ، والسائل الذى يسأل بلسانه ، وفى الحديث الذى فىالصحيحين[١٨] عن أبىسعيد الخدرى قال : أصابتنا فاقة فجئت رسولالله ﷺ لأسأله فوجدته يخطب الناس وهو يقول :

« ايها الناس والله ! مهما يكن عندنا من خير فلن نَدَّخره عنكم ، وانه مَن يَستغن يُغْنِهالله ، ومن يَستعفِف يُعِفّهالله ، ومن يتصبَّر يُصَبّرهالله ، وماأعطى أحد عطاءً خيرًا واوسع من الصبر »

---

(١٧) اخرجه البخارى فى الزكاة(١٣٠/٢) وفى الاحكام(١١١/٨) ومسلم فى الزكاة(٧٢٣/١رقم١٠٤٥) والبيهقى فى «شعب الايمان»(الشعبة٢٢) وراجع بقية تخريجه هناك .

(١٨) اخرجه البخارى فى الزكاة(١٢٩/٢) وفى الرقاق(١٨٣/٧) ومسلم فى الزكاة(٧٢٩/١رقم١٠٥٣)

واخرجه ايضا ابوداود فى الزكاة(٢٩٥/٢رقم١٦٤٤) والترمذى فى البر(٣٧٣/٤رقم٢٠٢٤) والنسائى فى الزكاة(٥/٩٥ـ٩٦) والدارمى فى الزكاة(٣٨٧) واحمد فى «المسند»(٣/٣،١٢،٤٧،٩٣) وعند مالك فى «الموطا»(٩٩٧) واخرجه ابويعلى فى «مسنده»(٣٦٧/٢رقم١١٢٩، ٤٥٥رقم١٢٦٧، ٥٠٥رقم١٣٥٢)

و «الاستغناء» أن لايرجو بقلبه أحدًا فيستشرف إليه و «الاستعفاف» أن لايسأل بلسانه أحدًا . ولهذا لما سئل احمد بن حنبل عن التوكل فقال : قطع الاستشراف الى الخلق ـ اى لايكون فى قلبك ان احدًا يأتيك بشيء ـ فقيل له : فما الحُجّة فى ذلك ؟ فقال : قول الخليل لما قال له جبرئيل هل لك من حاجة ؟ فقال :

« أمّا اِلَيْكَ فَلا »[١٩]

فهذا ومايشبهه مما يُبيّن ان العبد فى طلب ماينفعه ودفع ما يضُرّه لايُوَجّه قلبَه الا الى الله ، فلهذا قال المكروب : ﴿ لااله الا انت ﴾ . ومثل هذا مافى الصحيحين[٢٠] عن ابن عباس ان النبى ﷺ كان يقول : عند الكرب :

« لااله الاالله العظيم الحليم ، لااله الاالله رب العرش العظيم ، لااله ربّ السموات ورب الأرض ربّ العرش الكريم » .

فان هذه الكلمات فيها تحقيق التوحيد ، وتألّه العبد ربه ، وتعلق رجائه به وحده لاشريك له ، وهى لفظ خبر يتضمن الطلب .

---

(١٩) هذا جزء من قصة ذكرها البغوى فى «تفسيره»(٣٠١/٤) جاء فيها ان ابراهيم عليه السلام لما رموا به فى النار جاءه جبريل فقال : ياابراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما اليك فلا ، قال جبريل : فسل ربك ، قال : حسبي من سوالى علمه بحالى .

وذكر هذه الجملة الاخيرة ابن عراق فى «تنزيه الشريعة المرفوعة»(٢٥٠/١) وقال : قال ابن تيمية : موضوع . واورده الالبانى فى «الضعيفة»(٢١) وقال : لااصل له .

(٢٠) اخرجه البخارى فى الدعوات(١٥٤/٧) وفى التوحيد(١٧٧/٨،١٧٨) ومسلم فى الذكر(٢٠٩٢/٣،رقم٢٧٣٠) واحمد فى «المسند»(٢٢٨/١،٢٥٤،٢٨٠،٢٨٤،٣٣٩،٣٥٦)

واخرجه البيهقى فى «شعب الايمان» عن عبدالله بن جعفر عن على بنحوه(رقم٦١٤)

والناس وإن كانوا يقولون بألسنتهم : لااله الاالله ، فقول العبد لها مخلصا من قلبه له حقيقة اخرى ، وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعةالله . قال تعالى :

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُوْنُ عَلَيْهِ وَكِيْلاً ○ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُوْنَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيْلا ﴾[٢١]

فمن جعل مايأله هو مايَهواه فقد اتخذ الهه هَواه ، اى جعل معبوده هو مايهواه ، وهذا حال المشركين الذين يعبد احدهم مايستحسنه فهم يتخذون اندادًا من دونالله يحبونهم كحبالله ، ولهذا قال الخليل :

﴿ لاَ أُحِبُّ الآفِلِيْنَ ﴾[٢٢]

فان قومه لميكونوا منكرين للصانع ، ولكن كان احدهم يعبد مايستحسنه ويظنه نافعًا له كالشمس والقمر والكواكب ، والخليل بَيّن ان الآفل يغيبُ عن عابده وتحجبُه عنه الحواجبُ فلايَرَى عابدَه ، ولا يسمعُ كلامه ، ولايعلم حاله ، ولاينفعه ولايضره بسبب ولاغيره ، فأى وجه لعبادة من يأفل ؟ ! .

(الاخلاص فى الدين)

وكلما حقق العبد الاخلاصَ فى قول : لااله الاالله خرج من قلبه تألّه مايهواه ، وتصرف عنه المعاصى والذنوب ، كما قال تعالىٰ :

---

(٢١) سورة الفرقان(٤٣/٢٥،٤٤)

(٢٢) سورة الانعام(٧٦/٦)

﴿ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِيْنَ ﴾[٢٣]

فعلّل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عبادالله المخلصين ، وهؤلاء هو الذين قال فيهم :

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَان ﴾[٢٤]

وقال الشيطان :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ ○ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِيْن ﴾[٢٥]

وقدثبت فى الصحيح[٢٦] عن النبى ﷺ انه قال :

« من قال لااله الاالله مخلصا من قلبه حرمه‌الله على النار » .

فان الاخلاص ينفى اسباب دخول النار ، فمن دخل النار من القائلين لااله الاالله لم يُحقق اخلاصها المحرم له على النار ، بل كان فى قلبه نوع من الشرك الذى اوقعه فيما ادخله النار ، والشرك فى هذه الأمة اخفى من دبيب النمل ، ولهذا كان العبد مأمورًا فى كل صلاة ان يقول :

﴿ اِيَّاكَ نَعْبُدُ وَاِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ﴾

---

(٢٣) سورة يوسف(١٢/٢٤)

(٢٤) سورة الحجر(١٥/٤٢)

(٢٥) سورة ص(٣٨/٨٢ـ٨٣)

(٢٦) اخرجه البخارى(١/٤١) ومسلم(١/٦١) وراجع تخريجه فى «شعب الايمان» فى التعليق على الحديث(٧)

والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه فى ذلك ، فلاتزال النفس تلتفت الى غيرالله ، اما خوفًا منه ، واما رجاء له ؛ فلايزال العبد مفتقرا الى تخليص توحيده من شوائب الشرك ، وفى الحديث الذى رواه ابن ابى عاصم[٢٧] وغيره عن النبى ﷺ انه قال :

« يقول الشيطان : اهلكت الناس بالذنوب واهلكونى بلااله الاالله والاستغفار فلما رأيت ذلك بثثتُ فيهم الأهواء فهم يذنبون ولايستغفرون ، لأنهم يحسبون انهم يحسنون صنعا » .

فصاحب الهوى الذى اتبع هواه بغير هُدى من‌الله له نصيب ممن اتخذَ الهه هَواه ، فصار فيه شركٌ مَنَعَه من الاستغفار ، واما من حقق التوحيد والاستغفار فلابد ان يرفع عنه الشرّ ، فلهذا قال ذوالنون :

﴿ لاَاِلَهَ إلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ اِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِيْنَ ﴾ .

(الصلة بين التوحيد والاستغفار)

ولهذا يقرن‌الله بين التوحيد والاستغفار فى غير موضع . كقوله تعالى :

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَإِلَهَ إلاَّاللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤمِنِيْنَ وَالْمُؤمِنَات ﴾[٢٨]

---

(٢٧) فى «كتاب السنة» له(٩/١رقم٧) وقال الالبانى : اسناده موضوع وآفته عبدالغفور .

واخرجه ابويعلى فى «مسنده»(١٢٣/١رقم١٣٦) وقال الهيثمى : فيه عثمان بن مطر وهو ضعيف(مجمع الزوائد١٠/٢٠٧)

(٢٨) سورة محمد(١٩/٤٧)

وقال :

﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ٥ وَأَنِ اَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾[29]

وقوله :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اَعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ الى قوله ﴿ وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾[30]

وقوله :

﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾[31]

وخاتمة المجلس :

« سُبْحانكَ اللّهم وبِحَمْدِكَ اشهدُ ان لااله الاّ انتَ استغفرك واتوب اليك »[32]

ان كان مجلس رحمة كانت كالطابع عليه ، وان كان مجلس لغو كانت كفارة له .

---

(٢٩) سورة هود(١١/١ـ٢)

(٣٠) ايضا(١١/٥٠ـ٥٢)

(٣١) سورة حم السجدة(٤١/٦)

(٣٢) اخرجه النسائى فى «اليوم والليلة»(٤٢٩ـ٤٣٠) عن ابى العالية عن النبى ﷺ مرسلا .

وروى مرفوعا من حديث رافع اخرجه النسائى(٤٢٧) والحاكم فى «المستدرك»(٥٣٧/٢) ومن حديث ابى برزة الاسلمى اخرجه النسائى(رقم٤٢٦) وابوداود(١٨٢/٥رقم٤٨٥٩) والدارمى والحاكم فى «المستدرك»(٥٣٧/١) ومن حديث نافع بن جبير عن ابيه اخرجه النسائى(رقم٤٢٤) والحاكم(٥٣٧/١) والطبرانى فى «المعجم الكبير»(رقم١٥٨٦) .

وقدروى ايضا انها تقال فى آخر الوضوء بعد ان يقال :

« اشهد ان لااله الاالله وحده لاشريكَ لَهَ واشهدُ ان محمدًا عبده ورسوله ، اللهمّ اجْعَلنِى من التّوّابِينَ واجْعَلنِى مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ »[٣٣]

وهذا الذكر يتضمن التوحيد والاستغفار ، فان صدره الشهادتان اللتان هما اصلا الدين وجماعه : فان جميع الدين داخل فى «الشهادتين» إذ مضمونها ان لانعبد الاالله ، وان نطيع رسوله ، و«الدين» كله داخل فى هذا فى عبادةالله بطاعةالله وطاعة رسوله ، كل مايجب او يستحب داخل فى طاعةالله ورسوله .

وقدروى انه كان يقول :

« سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لااله الا انت ، استغفرُكَ واتوبُ اليكَ » .

وهذا كفارة المجلس ، فقد شرع فى آخر المجلس وفى آخر الوضوء . وكذلك كان النبى ﷺ يختم الصلاة كما فى الحديث الصحيح[٣٤] انه كان يقول فى آخر صلاته :

« اَللّهُمّ اغْفِرْلِى مَاقَدّمْتُ وَمَاأخّرْتُ وَمَاأسْرَرْتُ

---

(٣٣) اخرج هذا الدعاء بكامله الترمذى فى «جامعه»(٧٧/١ـ٧٨رقم٥٥) واخرجه دون الجملة الاخيرة مسلم(٢٠٩/١رقم٢٣٤) وابوداود(١١٨/١ـ١١٩رقم١٦٩) والنسائى(٩٢/١) واحمد(١٩/١، ١٥٣/٤) وابو يعلى فى «مسنده»(١٦٢/١رقم١٨٠، ٢١٣رقم٢٤٩) .

واخرج النسائى فى «عمل اليوم والليلة»(٨١) عن ابى سعيد عن النبى ﷺ قال :

«من توضأ فقال سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لااله الا انت استغفرك واتوب اليك كُتب فى رق ثم طبع بطابع فلم يُكسر الى يوم القيامة » .

(٣٤) راجع مسلم فى صلاة المسافرين(٥٣٤/١ـ٥٣٦رقم٧٧١) وهو نفس الحديث الذى مرّ تخريجه فى التعليق رقم(٤٠) .

وَمَاأَعْلَنْتُ وَمَا انتَ اعلمُ بِهِ مِنِّى ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ ، لاَاَلَهَ الا أَنْتَ »

وهنا قدّم الدعاء وختمه بالتوحيد ، لأن الدعاء مأمور به فى آخر الصلاة ، وختم بالتوحيد ليختم الصلاة بأفضل الأمرين وهو التوحيد ، بخلاف مالم يقصد فيه هذا فان تقديم التوحيد افضل .

فان جنس الدعاء الذى هو ثناء وعبادة افضل من جنس الدعاء الذى هو سؤال وطلب ، وان كان المفضول قديفضلُ على الفاضل فى موضعه الخاص بسبب وبأشياء أُخر ، كما ان الصلاة افضلُ من القراءة ، والقراءة افضلُ من الذكر الذى هو ثناءً ، والذكر افضلُ من الدعاء الذى هو سؤال . ومع هذا فالمفضول له امكنة وازمنة واحوال يكون فيها افضل من الفاضل ، لكن اول الدين وآخره وظاهره وباطنه هو التوحيد ، واخلاص الدين كله لله هو تحقيق قول لااله الاالله .

(توحيد الالهية وتوحيد الربوبية)

فان المسلمين وان اشتركوا فى الاقرار بها ، فهم متفاضلون فى تحقيقها تفاضلا لاتقدر انضبطه ، حتى ان كثيرا منهم يظُنُّون ان التوحيد المفروض هو الاقرار والتصديق بانّالله خالق كل شيء وربه . ولايُميّزون بين الاقرار بتوحيد الربوبية الذى اقرّ به مشركو العرب . وبين توحيد الالهية الذى دعاهم اليه رسولالله ﷺ ، ولايجمعون بين التوحيد القولى والعملى .

فان المشركين ماكانوا يقولون : إن العالم خلقه اثنان ، ولا ان معالله ربّا ينفرد دونه بخلق شئى ؛ بلكانوا كما قال الله عنهم :

﴿ وَلَئِنْسَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ :

الله ﴾[٣٥]

وقال تعالى :

﴿ وَمَا يُؤمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُوْنَ ﴾[٣٦]

وقال تعالى :

﴿ قُلْ لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيْهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ سَيَقُوْلُوْنَ : لله ، قُلْ : أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ؟ قُلْ : مَنْ رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيْمِ ؟ سَيَقُوْلُوْنَ : لله . قُلْ : أَفَلاَ تَتَّقُوْنَ ؟ قُلْ : مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيْرُ وَلاَيُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ؟ سَيَقُوْلُوْنَ : لله . قُلْ : فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ؟ ﴾[٣٧]

وكانوامع إقرارهم بان الله هو الخالق وحده يجعلون معه آلهة أخرى ، يجعلونهم شفعاء لهم إليه . ويقولون : مانعبدهم إلا لِيُقَرِّبُوْنَا إلى الله زُلْفَى . ويُحِبُّوْنَهُمْ كحُبِّ الله .

والاشراك فى الحب والعبادة والدعاء والسؤال غيرُالاشراك فى الاعتقاد والاقرار ، كما قال تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُوْنِاللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوْنَهُمْ كَحُبِّاللهِ ، والَّذِيْنَ آمَنُوْا أَشَدُّ حُبًّا للهِ ﴾[٣٨]

فمن أحب مخلوقًا كمايحب الخالق فهو مشرك به ،قداتخذ من دون الله أندادًا يحبهم كحب الله ، وإن كان مقرًا بان الله خالقه .

---

(٣٥) سورة لقمان(٢٥/٣١)

(٣٦) سورة يوسف(١٠٦/١٢)

(٣٧) سورة المؤمنون(٢٣/٨٤ـ٨٩)

(٣٨) سورة البقرة(١٦٥/٢)

(الفرق بين الحب لله والحب مع الله)

ولهذا فرق الله ورسوله بين من أحب مخلوقًا لله ، وبين من أحب مخلوقًا مع الله ، فالأول يكون الله هو محبوبه ومعبوده الذى هو منتهى حبه وعبادته لايحب معه غيره ؛ لكنه لماعلم أن الله يحب أنبياءه وعباده الصالحين أحبهم لأجله ، وكذلك لماعلم أن الله يحب فعل المأمور وترك المحظور أحب ذلك ، فكان حبه لمايحبه تابعًا لمحبة الله وفرعًا عليه وداخلاً فيه .

بخلاف من أحب مع الله فجعله ندًا لله يرجوه ويخافه ، أو يطيعه من غير أن يعلم أن طاعته طاعةً لله ، ويتخذه شفيعًا له من غير أن يعلم أن الله يأذن له ان يشفع فيه قال تعالى :

﴿ وَيَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ مَـا لاَ يَضُرُّ هُمْ وَلاَيَنْفَعُهُمْ وَيَقُوْلُوْنَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاوُنَا عِنْدَاللهِ ﴾[٣٩]

وقال تعالى :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيْحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَاأُمِرُوْا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَإِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٤٠]

وقدقال عدى بن حاتم للنبى ﷺ ماعبدوهم ، قال :

« احلوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرموا عليهم الحلال

---

(٣٩) سورة يونس(١٠/١٨)

(٤٠) سورة التوبة(٩/٣١)

فأطاعوهم ، فكانت تلك عبادتهم اياهم »[٤١].

قال تعالى :

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوْا لَهُمْ مِنَ الدِيْنِ مَالَمْ يَاذَنْ بِهِاللهُ ﴾[٤٢]

وقال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُول سَبِيْلا ○ يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيْلاً ○ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولا ﴾[٤٣]

(طاعة الرسول هى طاعةالله)

فالرسول وجبت طاعته ، لأنه من يطع الرسول فقد اطاعالله ، فالحلال ماحَلّله ، والحرام ماحرّمه ، والدين ماشرعه ، ومن سوى الرسول من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك انما تجب طاعتهم اذا كانت طاعتهم طاعة لله ، وهم اذا امرالله ورسوله بطاعتهم فطاعتهم داخلة فى طاعة الرسول ، قال تعالى :

---

(٤١) اخرجه الترمذى(٢٧٨/٥رقم٣٠٩٥) وقال حديث غريب . والبيهقى فى «سننه»(١١٦/١٠) وانظر «الدر المنثور»(١٧٤/٤) .

(٤٢) سورة الشورى(٢١/٤٢)

(٤٣) سورة الفرقان(٢٥/٢٧ـ٢٨)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اطِيْعُوااللهَ وَاطِيْعُوا الرَّسُول وَأُوْلِى الأَمْر مِنْكُم ﴾[٤٤]

فلم يقل واطيعوا الرسول واطيعوا اولى الأمر منكم ، بل جعل طاعة اولى الأمر داخلة فى طاعة الرسول ، وطاعة الرسول طاعة لله ، واعاد الفعل فى طاعة الرسول دون طاعة اولى الامر ، فانه من يطع الرسول فقد اطاعالله ، فليس لاحد اذا امر الرسول بأمر ان ينظر هل امرالله به ام لا ، بخلاف اولى الامر فانهم قديأمرون بمعصيةالله ، فليس كل من اطاعهم مطيعًا لله . بل لابدّ فيما يأمرون به ان يعلم انه ليس معصيةلله ، وينظر هل امرالله به ام لا ، سواء كان اولى الامر من العلماء او الامراء ، يدخل فى هذا تقليد العلماء وطاعة امراء السرايا وغير ذلك ، وبهذا يكون الدين كله لله قال تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتّى لاَتَكُوْنَ فِتْنَةٌ وَيَكُوْنَ الدِّيْنُ كُلُّهُ لله ﴾[٤٥]

وقال النبى ﷺ :

« لما قيل له : يارسولالله ! الرجل يقاتل شجاعةً ، ويقاتل حميةً ، ويقاتل رياء . فأى ذلك فى سبيلالله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمةُالله هى العليا فهو فى سبيلالله »[٤٦]

---

(٤٤) سورة النساء(٥٩/٤)

(٤٥) سورة الانفال(٣٩/٨)

(٤٦) اخرجه البخارى فى العلم(٤٠/١) وفى التوحيد(١٨٩/٨) ومسلم فى الامارة(١٥١٢/٢ـ١٥١٣رقم١٩٠٤) والترمذى فى فضائل الجهاد(١٧٩/٤رقم١٦٤٦) وابن ماجه فى الجهاد(٩٣١/٢رقم٢٧٨٣) واحمد فى «المسند»(٣٩٧/٤،٤٠٥،٤١٧) والبيهقى فى «سننه»(١٦٧/٩،١٦٨) .

ثم ان كثيرًا من الناس يحب خليفة او عالما او شيخا او اميرا فيجعله ندًا لله ، وان كان قديقول : انه يحبه لله .

فمن جعل غير الرسول تجب طاعته فى كل مايأمر به وينهى عنه وانخالف امرالله ورسوله فقد جعله ندًا ، وربما صنع به كما تصنع النصارى بالمسيح ، ويدعوه ويستغيث به ، ويوالى اولياءه ، ويعادى اعداءه مع ايجابه طاعته فى كل مايأمر به وينهى عنه ويحلله ويحرمه ، ويقيمه مقامالله ورسوله فهذا من الشرك الذى يدخل أصحابه فى قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُوْنِاللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّاللهِ وَالَّذِيْنَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله ﴾[٤٧]

فالتوحيد والاشراك يكون فى اقوال القلب ، ويكون فى اعمال القلب ولهذا قال الجنيد : التوحيد قول القلب ، والتوكل عمل القلب .

اراد بذلك التوحيد الذى هو التصديق ، فانه لما قرنه بالتوكل جعله اصله ، واذا افرد لفظ التوحيد فهو يتضمن قول القلب وعمله ، والتوكل من تمام التوحيد .

(معنـــى الايمـــان)

وهذا كلفظ «الايمان» فانه اذا أُفرد دخلت فيه الاعمال الباطنة والظاهرة .

وقيل الايمان قول وعمل ، اى قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح .

---

(٤٧) سورة البقرة(١٦٥/٢)

ومنه قول النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه :

« الايمانُ بضعٌ وستُّون شُعبة ، اعلاها قول لااله الاّالله ، وادناها اماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان »[٤٨]

ومنه قوله تعالى :

﴿ انَّمَا الْمُؤمِنُوْنَ الَّذِيْنَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِم وانْفُسِهِمْ فِى سَبِيْلِ الله أُولئكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[٤٩]

وقوله :

﴿ إنَّمَا الْمُؤمِنُونَ الَّذِيْنَ إذَا ذُكِرَاللهُ وَجِلَتْ قُلُوْبُهُمْ وَإذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إيْمَانَاً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ○ الَّذِينَ يُقِيْمُوْنَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ○ أُولئكَ هُمُ الْمُؤمِنُونَ حقًّا ﴾[٥٠]

وقوله :

﴿ إنَّمَا الْمُؤمِنُونَ الَّذِيْنَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُوْلِهِ ، واذا كَانُوا معهُ عَلى امرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حتّى يَسْتَأذِنُوه ﴾[٥١]

---

(٤٨) هكذا فى الاصل «بضع وستون» بدون شك . والرواية بهذه اللفظة مختصرة اخرجها مسلم فى الايمان . ورواية المتن جاءت بالشك «بضع وستون أو بضع وسبعون» اخرجها مسلم ايضًا وجاءت «بضع وسبعون» بدون شك عند مسلم وغيره . وراجع الكلام عليها فى «شعب الايمان»(١ـبتحقيقنا) .

(٤٩) سورة الحجرات(١٥/٤٩)

(٥٠) سورة الانفال(٢/٨ـ٤)

(٥١) سورة النور(٦٢/٢٤)

و «الايمان المطلق» يدخل فيه الاسلام كما فى الصحيحين[٥٢] عن النبى ﷺ انه قال لوفد عبدالقيس :

«آمركم بالايمان بالله ؛ أتدرون ماالايمان بالله ؟ شهادة ان لااله الاالله ، وان محمدًا رسول‌الله واقام الصلاة ، وإيتاء الزكوة ، وان تؤدوا خمس ماغنمتم »

ولهذا قال من السلف : كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمنًا .

واما اذا قرن لفظ الايمان بالعمل أو بالاسلام فانه يفرق بينهما كما فى قوله تعالى :

﴿ اِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ ﴾

وهو فى القران كثير ، وكما فى قول النبى ﷺ فى الحديث الصحيح[٥٣] لماسأله جبريل عن الاسلام والايمان والاحسان فقال :

« الاسلام : ان تشهد ان لااله الاّالله وان محمدًا رسول‌الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت .

قال فماالايمان ؟ قال :

---

(٥٢) حديث وفد عبدالقيس اخرجه البخارى فى الايمان(١٩/١) وفى العلم(٣٠/١) وفى الآحاد(١٣٦/٨) وغيرها من المواضع - ومسلم فى الايمان(٤٧/١) وراجع تخريجه كاملا فى «شعب الايمان»(رقم١٨) .

(٥٣) حديث سوال جبريل اخرجه البخارى(١٨/١) ومسلم(٣٩/١) عن ابى‌هريرة .

وتفرد مسلم باخراجه من حديث عمر بن الخطاب وراجع التفصيل فى «شعب الايمان»(١٩) .

« ان تـؤمن بـالله ، ومـلائكتـه ، وكتبــه ، ورسلــه ، والبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »

قال : فماالاحسان ؟ قال :

« ان تعبدالله كأنك تراه ، فانلم تكن تراه فانه يراك »

ففرق فى هذا النص بين الاسلام والايمان لماقرن بين الاسمين وفى ذلك النص ادخل الاسلام فى الايمان لماافرده بالذكر .

وكذلك لفـظ «العمل» فـان الاسلام المـذكور هو من العمل ، والعمل الظاهر هو موجب ايمان القلب ومقتضاه ، فاذا حصل ايمان القلب حصل ايمـان الجـوارح ضرورة ، وايمـان القلب لابـد فيــه من تصـديـق القلب وانقياده ، والا فلوصدق قلبـه بـان محمـدًا رسولالله وهو يبغضـه ويحسـده ويستكبر عن متابعته لم يكن قدآمن قلبه .

و «الايمان» وانتضمن التصديق فليس هو مرادفًا لـه ، فلايقـال لكل مصدق بشئى : انـه مؤمن بـه . فلوقـال : انـااصـدق بـأن الواحـد نصف الاثنين ، وان السماء فوقنا والارض تحتنا ، ونحو ذلك ممـا يشـاهـده النـاس ويعلمونـه لم يقل لهـذا : انـه مؤمن بـذلـك ؛ بل لايستعمـل الا فيمن أخبر بشئى من الامور الغائبة كقول اخوة يوسف :

﴿ وَمَا اَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾[٥٤]

فـانهم اخبروه بمـاغـاب عنـه وهم يفرقـون بين من آمن لــه وآمن بــه فالاول يقال للمخبر ، والثانى يقال للمخبر به كما قال اخوة يوسف :

﴿ وَمَا اَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾

وقال تعالى :

---

(٥٤) سورة يوسف(١٧/١٢)

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى اِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ ﴾[٥٥]

وقال تعالى :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِيْنَ يُؤْذُوْنَ النَّبِيَّ وَيَقُوْلُوْنَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِيْنَ ﴾[٥٦]

ففرق بين ايمانه بـالله وايمـانـه للمؤمنين ؛ لان المراد يصـدق المؤمن اذا أخبروه واما ايمانه بالله فهو من باب الاقرار به .

ومنه قوله تعالى عن فرعون وملائه :

﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾[٥٧] اى نقر لهما ونصدقهما .

ومنه قوله :

﴿ أَفَتَطْمَعُوْنَ أَنْ يُؤْمِنُوْا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيْقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُوْنَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُوْنَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوْهُ وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ ﴾[٥٨]

ومنه قوله تعالى :

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوْطٌ وَقَالَ اِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾[٥٩]

ومن المعنى الآخر قوله تعالى :

---

(٥٥) سورة يونس(١٠/٨٣)

(٥٦) سورة التوبة(٩/٦١)

(٥٧) سورة المؤمنون(٢٣/٤٧)

(٥٨) سورة البقرة(٢/٧٥)

(٥٩) سورة العنكبوت(٢٩/٢٦)

﴿ يُؤْمِنُوْنَ بِالْغَيْبِ ﴾[٦٠]

وقوله :

﴿ آمَنَ الرَّسُوْلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُوْنَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَنُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ ﴾[٦١]

وقوله :

﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّيْنَ ﴾[٦٢]

أى اقر بذلك ومثل هذا فى القرآن كثير .

و (المقصود هنا) ان لفظ «الايمان» انما يستعمل فى بعض الاخبار ، وهو مأخوذ من الأمن ، كما ان الاقرار مأخوذ من قر ، فالمؤمن صاحب امن ، كما ان المقر صاحب إقرار ، فلابد فى ذلك من عمل القلب بموجب تصديقه ، فاذا كان عالما بأن محمدا رسول‌الله ، ولم يقترن بذلك حبه وتعظيمه بل كان يبغضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه فان هذا ليس بمؤمن به بل كافر به .

ومن هذا الباب كفر إبليس وفرعون واهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وغير هؤلاء ، فان ابليس لم يكذب خبرا ولامخبرًا بل استكبر عن امر ربه . وفرعون وقومه قال‌الله فيهم :

---

(٦٠) سورة البقرة(٢/٣)

(٦١) ايضاً(٢/٢٨٥)

(٦٢) ايضا(٢/١٧٧)

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[٦٣]

وقال له موسى :

﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هٰؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّموات وَالأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾[٦٤]

وقال تعالى :

﴿ ٱلَّذِيْنَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُوْنَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[٦٥]

فمجرد علم القلب بالحق ان لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له ، واتباع القلب له لم ينفع صاحبه ، بل اشدُّ الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه ، وقدكان النبي ﷺ يقول :

« اللهم انى اعوذبك من علم لاينفع ، ونفس لاتشبع ، ودعاء لايسمع ، وقلب لايخشع »[٦٦]

ولكن الجهمية ظنوا ان مجرد علم القلب وتصديقه هوالايمان ، وان من دل الشرع على انه ليس بمؤمن فان ذلك يدل على عدم علم قلبه ، وهذا من اعظم الجهل شرعا وعقلا . وحقيقتهتوجب التسوية بين المؤمن والكافر ، ولهذا اطلق وكيع بن الجراح واحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة كفرهم بذلك ، فانه من المعلوم ان الانسان يكون عالما بالحق ويبغضه لغرض آخر ، فليس كل من كان مستكبرًا عن الحق يكون غير عالم به ،

---

(٦٣) سورة النمل(١٤/٢٧)

(٦٤) سورة الاسراء(١٠٢/١٧)

(٦٥) سورة البقرة(١٤٦/٢)

(٦٦) اخرجه مسلم فى الذكر(٢٠٨٨/٣) من حديث زيد بن ارقم . واخرجه البيهقى فى «شعب الايمان»(التعمة١٨) من حديث انس . وراجع تخريجه هناك .

وحينئذ فالايمان لابد فيه من تصديق القلب وعمله ، وهذا معنى قول السلف : الايمان قول وعمل .

ثم انه اذا تحقق القلبُ بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للارادة لزم وجود الأفعال الظاهرة ، فان الارادة الجازمة اذ اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعًا ، وانما ينتفى وجود الفعل لعدم كال القدرة ، او لعدم كال الارادة ، والا فمع كالها يجب وجود الفعل الاختيارى ، فاذا اقر القلب اقرارًا تاما بان محمدًا رسول‌الله واحبه محبة تامة امتنع مع ذلك ان لايتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك ، لكن ان كان عاجزا لخرس ونحوه او لخوف ونحوه لم‌يكن قادرا على النطق بها .

و«ابوطالب» وان كان عالما بان محمدا رسول‌الله وهو محبٌّ له فلم‌تكن محبته له لمحبته لله ، بل كان يحبه لأنه ابن اخيه فيحبه للقرابة ، واذا احب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرئاسة ، فأصل محبوبه هو الرئاسة ، فلهذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى ان بالاقرار بها زوال دينه الذى يحبه . فكان دينه احب اليه من ابن اخيه فلم يُقِرّ بها ـــ فلو كان يحبه لأنه رسول‌الله كما كان يحبه ابوبكر الذى قال‌الله فيه :

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ○ الَّذِىْ يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى ○ وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ○ إلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّه الأَعْلَى ○ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾[٦٧]

وكما كان يحبه سائر المؤمنين به ، كعمر وعثمان وعلى وغيرهم لنطق بالشهادتين قطعًا ـــ فكان حبه حبا مع‌الله لاحبا لله ، ولهذا لم‌يقبل‌الله مافعله من نصر الرسول وموازرته لأنه لم‌يَعْمَلَه لله ، والله لايقبل من العمل الا ماارید به وجهُه ، بخلاف الذى فعل مافعل ابتغاء وجه ربه الأعلى .

---

(٦٧) سورة الليل(٩٢/١٧ـ٢١)

(الدين لا يكمل الا بالعمل)

وهذا مما يحقق ان «الايمان ، والتوحيد» لابد فيهما من عمل القلب ، كحب القلب ، فلابد من اخلاص الدين لله ، والدين لايكون دينًا الا بعمل ، فان الدين يتضمن الطاعة والعبادة ؛ وقدانزل‌الله عزوجل سورتى الأخلاص[٦٨]

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿ وَقُلْ هُوَ اللهُ اَحَدٌ ﴾

احداهما فى توحيد القول والعلم . والثانية فى توحيد العمل والارادة ، فقال فى الأول :

﴿ قُلْ هُوَاللهُ اَحَدٌ ○ اللهُ الصَّمدُ ○ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ○ وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا اَحدٌ ﴾

فأمره ان يقول هذا التوحيد وقال فى الثانى :

﴿ قُلْ يَا اَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لاأَعْبُدُ مَاتَعْبُدُوْنَ ، وَلاأَنْتُمْ عَابِدُونَ مَاأَعْبُدُ ، وَلاَ اَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُّمْ ، وَلاَ اَنْتُمْ عَابِدُوْنَ مَا أَعْبُدُ ، لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَلِىَ دِيْنِ ﴾

فأمره ان يقول مايوجب البراءة من عبادة غيرالله واخلاص العبادة لله .

و «العبادة» اصلها القصد والارادة . والعبادة اذا أُفْرِدَتْ دخل فيها التوكل ونحوه ، واذا قرنت بالتوكل صار التوكل قسيما لها ، كما ذكرناه فى لفظ الايمان ، قال تعالى :

---

(٦٨) انظر «تفسير سورة الاخلاص» لشيخ الاسلام ـ طبعةالدار السلفية .

﴿ وَمَاخَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ اِلاَّ لِيَعْبُدُوْنِ ﴾[69]

وقال تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَاالنَّاسُ اُعْبُدُوْا رَبَّكُمْ ﴾[70]

فهذا ونحوه يدخل فيه فعل المأمورات وترك المحظورات ؛ والتوكل من ذلك ، وقدقال فى موضع آخر :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ﴾

وقال :

﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[71]

(تنوع دلالة الفاظ القرآن)

ومثل هذا كثيرًا مايجئى فى القرآن : تتنوع دلالةاللفظ فى عمومه وخصوصه بحسبالافراد والاقتران ؛ كلفظ «المعروف والمنكر» فانه قدقال :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ : تَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾[72]

وقال :

---

(٦٩) سورة الذاريات(٥٦/٥١)

(٧٠) سورة البقرة(٢١/٢)

(٧١) سورة هود(١٢٣/١١)

(٧٢) سورة آل عمران(١١٠/٣)

﴿ وَالْمُـؤْمِنُـوْنَ وَالْمُـؤْمِنَـاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾[٧٣]

وقال :

﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾[٧٤]

فالمنكر يدخل فيه ماكرهه‌الله : كمايدخل فى المعروف مايحبه‌الله .

وقدقال فى موضع آخر :

﴿ إِنَّ‌الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ ﴾[٧٥]

فعطف المنكر على الفحشاء ، ودخل فى المنكر هنا البغى . وقال فى موضع آخر :

﴿ إِنَّ‌اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيْتَاءِذِىْ‌الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾[٧٦]

فقرن بالمنكر الفحشاء والبغى .

ومن هذا الباب لفظ «الفقراء ، والمساكين» اذا أفرد احدهما دخل فيه الآخر ، واذا قرن احدهما بالآخر صار بينهما فرق ؛ لكن هناك احد الاسمين اعم من الآخر ، وهنا بينهما عموم وخصوص ، فمحبة‌الله وحده والتوكل عليه وحده وخشية‌الله وحده ونحو هذا كل هذا يدخل فى توحيدالله تعالى ، قال تعالى فى المحبة :

---

(٧٣) سورة التوبة(٧١/٩)

(٧٤) سورة الاعراف(١٥٧/٧)

(٧٥) سورة العنكبوت(٤٥/٢٩)

(٧٦) سورة النل(٩٠/١٦)

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُوْنِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوْنَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا اَشَدُّ حُبًّا للهِ ﴾[٧٧]

وقال تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَاِخْوَانُكُمْ وَاَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيْرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اَقْتَرَفْتُمُوْهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللهِ وَرَسُوْلِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيْلِهِ فَتَرَبَّصُوْا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾[٧٨]

وقال تعالى :

﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُوْلَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفَائِزُوْنَ ﴾[٧٩]

فجعل الطاعة لله والرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده وقال تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا أَتَاهُمُ اللهُ وَرَسُوْلُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِيْنَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُوْلُهُ إِنَّا الَى اللهِ رَاغِبُون ﴾[٨٠]

وقال تعالى :

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾[٨١]

---

(٧٧) سورة البقرة(١٦٥/٢)

(٧٨) سورة التوبة(٢٤/٩)

(٧٩) سورة النور(٥٢/٢٤)

(٨٠) سورة التوبة(٥٩/٩)

(٨١) سورة المنشرح(٩٤/٧ـ٨)

فجعل التحسب والرغبة الىالله وحده .

وهذه الامور مبسوطة فى غير هذا الموضع .

(تحقيق توحيد الالهية)

و (المقصود هنا) ان قول القائل : ﴿ لااله الا أنت ﴾ فيه افراد الالهية لله وحده وذلك يتضمن التصديق لله قولاً وعملاً ، فالمشركون كانوا يَقِرُّون بان الله ربّ كل شيء ؛ لكن كانوا يجعلون معه آلهة أخرى ، فلا يَخُصُّونه بالالهية . وتخصيصه بالالهية يوجب ان لايعبد الا اياه ، وان لايسأل غيره ، كما فى قوله :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْن ﴾

فان الانسان قديقصد سؤال الله وحده والتوكل عليه ، لكن فى امور لايحبها الله ، بل يكرهها وينهى عنها ، فهذا وان كان مخلصا له فى سؤاله والتوكل عليه ، لكن ليس هو مخلصا فى عبادته وطاعته ، وهذا حال كثير من اهل التوجهات الفاسدة أصحاب الكشوفات والتصرفات المخالفة لأمرالله ورسوله ، فانهم يعانون على هذه الأمور .

وكثير منهم يستعين الله عليها لكن لما لمتكن موافقة لأمرالله ورسوله حصل لهم نصيب من العاجلة ، وكانت عاقبتهم عاقبة سيئة ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾[٨٢]

---

(٨٢) سورة الاسراء(٦٧/١٧)

وقال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الانْسَانَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَو قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا الَى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾[٨٣]

وطائفة اخرى قد يقصدون طاعة الله ورسوله ، لكن لا يحققون التوكل عليه والاستعانة به . فهولاء يثابون على حسن نيتهم ، وعلى طاعتهم ، لكنهم مخذولون فيما يقصدونه ، إذ لم يحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه ، ولهذا يبتلى الواحد من هولاء بالضعف والجزع تارة ، وبالاعجاب أخرى ، فان لم يحصل مراده من الخير كان لضعفه وربما حصل له جزع . فان حصل مراده نظر الى نفسه وقوته فحصل له اعجاب ، وقد يعجب بحاله فيظن حصول مراده فيخذل . قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾[٨٤] الى قوله : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عَلَى مَن يَّشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

(الفرق بين الرياء والعجب)

وكثيرًا مايقرن الناس بين الرياء والعجب ، فالرياء من باب الاشراك بالخلق ، والعجب من باب الاشراك بالنفس وهذا حال المستكبر ، فالمرائى لا يحقق قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ والمُعجِب لا يحقق

---

(٨٣) سورة يونس(١٠/١٢)

(٨٤) سورة التوبة(٩/٢٥ـ٢٧)

قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فمن حقق قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ خرج عن الريـــاء ومن حقــق قــولــه : ﴿ إِيَّــاكَ نَسْتَعِيْن ﴾ خرج عن الاعجاب ، وفى الحديث المعروف :

« ثــلاث مهلكات : شــح مطـــاع ، وهــوى متبــع ، واعجاب المرء بنفسه »[٨٥]

وشر من هولاء وهولاء من لاتكون عبادته لله ولااستعانته بالله بل يعبد غيره ويستعين غيره وهؤلاء المشركون من الوجهين .

ومن هولاء من يكون شركه بالشياطين كاصحاب الأحوال الشيطانية فيفعلون ماتحبه الشياطين من الكذب والفجور ويدعونه بأدعية تحبها الشياطين ويعزمون بالعزائم التى تطيعها الشياطين مما فيها اشراك بالله . كما قدبسط الكلام عليهم فى مواضع اخر .

وهؤلاء قديحصل لهم من الخوارق مايظن انه من كرامات الأولياء . وانما هو من احوال السحرة والكهان ، ولهذا يجب الفرق بين الأحوال الايمانية القرآنية والأحوال النفسانية والأحوال الشيطانية .

واما القسم الرابع فهم اهل التوحيد الذين اخلصوا دينهم لله فلم يعبدوا الا اياه ولم يتوكلوا الا عليه .

وقول المكروب : ﴿ **لااله الا أنت** ﴾ قديستحضر فى ذلك احد النوعين دون الآخر فمن أتمّ الله عليه النعمةَ استحضرَ التوحيد فى النوعين ، فان المكروب هِمّتُه منصرفةٌ الى دفع ضُرّه وجلب نفعه ، فقد يقول :

---

(٨٥) روى عن حديث انس وعبدالله بن عباس وابىهريرة وعبدالله بن ابىاوفى وعبدالله بن عمر .

واخرجه البيهقى فى «شعب الايمان»(الشعبة١١) وتكلم عليه الشيخ الالبانى فى «الصحيحة»(١٨٠٢)

« لااله الاالله » مستشعرا انه لايكشف الضرّ غيرّك ، ولايأتى بالنعمة الا أنت فهـذا مستحضرٌ تـوحيـد الربـوبيـة ، ومستحضر تـوحيـدَ السـؤال والطلب ، والتـوكل عليـه ، معرض عن تـوحيـد الالهيـة الـذى يحبـه الله ويرضاه ويأمر به وهو أن لايعبد الا اياه ولايعبده الا بطاعتـه وطـاعـة رسوله ، فمن استشعر هذا فى قوله : ﴿ لااله الا أنت ﴾ كان عـابـدًا لله متوكلا عليه وكان ممتثلا قوله :

﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[٨٦]

وقوله :

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[٨٧]

وقوله :

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ○ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾[٨٨]

ثم ان كان مطلوبه محرما أثم وان قضيت حـاجتـه . وان كان طـالبًـا مباحًـا لغير قصـد الاستعـانـة بـه على طـاعـةالله وعبـادتـه ، لم يكن آثمـا ولامثابا ، وان كان طالبًا مايعينه على طاعةالله وعبادته لقصد الاستعانـة به على ذلك كان مثابا مأجورا .

وهذا مما يفرق بـه بين العبـد الرسول وخلفـائـه ، وبين النبى الملـك ، فـان نبينـا محـمدًا ﷺ خُيِّر بين ان يكـون نبيًّـا ملكا او عبــدًا رسـولاً ،

---

(٨٦) سورة هود(١١/١٢٣)

(٨٧) ايضـًا(١١/٨٨)

(٨٨) سورة المزمل(٧٣/٨ـ٩)

فاختار ان يكون عبدًا رسولا[٨٩]، فان العبد الرسول هو الذى لا يفعل الا ماأمر به ، ففعله كله عبادة لله ، فهو عبد محض مُنَفِّذٌ أمَرَ مُرْسِلِه ، كما ثبت عنه فى صحيح البخارى[٩٠] انه قال :

« إنى والله لااعطى احدًا ولاامنع احدًا وانما انا قاسم أضع حيث امرت » .

وهو لم يرد بقوله « لااعطى احدا ولاامنع » إفراد الله بذلك قدرًا وكونا ، فان جميع المخلوقين يشاركونه فى هذا فلا يعطى احدا ولا يمنع الا بقضاءالله وقدره ، وانما اراد افراد الله بذلك شرعا ودينا . أى لاأعطى الا من أمرتُ باعطائه ، ولاامنع الا من أمِرْتُ بمنعه ، فأنا مطيعٌ لله فى إعطائى ومنعى ، فهو يقسم الصدقة والفىءَ والغنائم كما يقسم المواريثَ بين اهلها ، لأن الله امره بهذه القسمة .

(مال الله ورسوله مايصرف فى طاعةالله ورسوله)

ولهذا كان المال حيث اضيف الى الله ورسوله فالمراد به مايجب ان يُصرف فى طاعةالله ورسوله ، وليس المراد به انه مِلكٌ للرسول ، كما ظنّه طائفة من الفقهاء ، ولاالمراد به كونه مملوكا لله خلقًا وقدرًا ، فان جميع الأموال بهذه المثابة ، وهذا كقوله :

﴿ قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ ﴾[٩١]

---

(٨٩) اخرجه البيهقى فى «شعب الايمان»(رقم١٥٣) وراجع الكلام عليه هناك .

(٩٠) اخرجه البخارى فى الخمس(٤٩/٤) واحمد فى «المسند»(٤٨٢/٢) من حديث ابىهريرة .

(٩١) سورة الانفال(١/٨)

وقوله :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِن شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾[٩٢] الآية .

وقوله :

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَرِكَابٍ ﴾[٩٣] الى قوله ﴿ مَاأَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلهِ وَ لِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى ﴾ الآية .

فذكر فى الفىء ماذكر فى الخمس .

فظن طائفة من الفقهاء ان الاضافة الى الرسول تقتضى انه يملكه ، كما يملك الناس املاكهم . ثم قال بعضهم : ان غنائم بدر كانت ملكا للرسول . وقال بعضهم : ان الفئ واربعة اخماسه كان ملكا للرسول . وقال بعضهم : ان الرسول انما كان يستحق من الخمس خُمسه . وقال بعض هؤلاء : وكذلك كان يستحق من خمس الفئ خمسه ، وهذه الاقوال توجد فى كلام طوائف من اصحاب الشافعى واحمد وابىحنيفة وغيرهم ، وهذا غلط من وجوه :

(دلائل خطأ رأى الفقهاء)

(منها) ان الرسول لم يكن يملك هذه الاموال كما يملك الناس اموالهم ،

---

(٩٢) ايضاً(٤١/٨)

(٩٣) سورة الحشر(٥٩/٦-٧)

ولا كما يتصرّفُ الملوك فى ملكهم ، فان هؤلاء وهؤلاء لهم ان يصرفوا اموالهم فى المباحات ، فاما ان يكون مالكا له فيصرف فى اغراضه الخاصة ، واما ان يكون مَلِكا له فيصرفه فى مصلحة ملكه ، وهذه حال النبى الملك كداود وسليمان . قال تعالى :

﴿ فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٩٤]

اى اعط من شئت واحرم من شئت لاحساب عليك ، ونبينا كان عبدًا رسولاً لا يعطى الا من امر باعطائه ، ولا يمنع الا من امر بمنعه ، فلم يكن يصرف الأموال الا فى عبادة الله وطاعة له .

(ومنها) ان النبى لا يُورَثُ ولو كان مَلِكا ، فان الأنبياء لا يورثون فاذا كان ملوك الأنبياء لم يكونوا ملاكا كما يملك الناس اموالهم ، فكيف يكون صفوة الرسل الذى هو عبدٌ رسولٌ مالكا .

(ومنها) ان النبى ﷺ كان ينفق على نفسه وعياله قدر الحاجة ، ويصرف سائر المال فى طاعة الله لا يستفضله ، وليست هذه حال المُلاّك ، بل المال الذى يتصرف فيه كله هو مال الله ورسوله ، بمعنى ان الله امر رسوله ان يصرف ذلك المال فى طاعته ، فتجب طاعته فى قسمه ، كما تجب طاعته فى سائر ما يأمر به ؛ فانه من يطع الرسول فقد اطاع الله ، وهو فى ذلك مُبَلِّغٌ عن الله .

والاموال التى كان يقسمها النبى ﷺ على وجهين :

(منها) : ماتَعَيَّنَ مستحقُّه ومصرفه كالمواريث .

(ومنها) مايحتاج الى اجتهاده ونظره ورأيه ، فان ماامر الله به منه ماهو محدود بالشرع : كالصلاة الخمس ، وطواف الاسبوع بالبيت ، ومنه

---

(٩٤) سورة ص(٣٨/٣٩)

مايرجع فى قدره الى اجتهاد الأمور فيزيده وينقصه بحسب المصلحة التى يحبهاالله .

فمن هذا مااتفق عليه الناس ، ومنه ماتنازعوا فيه : كتنازع الفقهاء فيمايجب للزوجات من النفقات : هل هى مقدرة بالشرع ؟ ام يرجع فيها الى العرف ، فتختلف فى قدرها وصفتها باختلاف احوال الناس ؟ . وجمهور الفقهاء على القول الثانى ، وهو الصواب لقول النبى ﷺ لهند :

« خُذِىْ مَايَكْفِيْكِ ووَلَدَكِ بِٱلْمَعْرُوْفِ »[٩٥]

وقال ايضًا : فى خطبة المعروفة :

« لِلنِّسَاءِ كِسْوَتُهُنَّ ونَفَقَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوْفِ »[٩٦]

وكذلك تنازعوا ايضًا فيمايجب من الكفارات : هل هو مقدر بالشرع أو بالعرف ؟

فما أضيف الى الله والرسل من الأموال كان المرجع فى قسمته الى امر النبى ﷺ ؛ بخلاف ماسُمِّىَ مستحقوه كالمواريث ، ولهذا قال النبى ﷺ عام حنين :

« ليس لى ممافاءالله عليكم الا الخمس ، والخمس مردود عليكم »[٩٧]

---

(٩٥) اخرجه البخارى فى البيوع(٣٦/٣) وفى النفقات(١٩٣/٦) ومسلم فى الاقضية(١٣٣٨/٢رقم٧) والنسائى فى آداب القضاة(٢٤٦/٨-٢٤٧) وابن ماجه فى التجارات(٧٦٩/٢رقم٢٢٩٣) والدارمى(٥٥٥) .

(٩٦) راجع خطبة النبى ﷺ فى حجة الوداع عند مسلم(٨٨٦/١-٨٩٢رقم١٢١٨) وابى داود(٤٥٥/٢-٤٦٤رقم١٩٠٥) وابن ماجه(١٠٢٢/٢-١٠٢٧رقم٣٠٧٤) .

(٩٧) اخرجه ابوداود(١٨٨/٣رقم٢٧٥٥) والحاكم(٦١٦/٣) والبيهقى فى «سننه»(٣٣٩/٦) عن عمرو بن عبسة =

اى ليس له بحكم القسم الذى يرجع فيه الى اجتهاده ونظره الخاص الا الخمس ، ولهذا قال : « **وهو مردود عليكم** » بخلاف اربعة اخماس الغنيمة فانه لمن شهد الوقعة .

ولهذا كانت الغنائم يقسمها الأمراء بين الغانمين ، والخمس يرفع الى الخلفاء الراشدين المهديين الذى خلفوا رسول الله ﷺ فى امته فيقسمونها بامرهم ، فاما اربعة الاخماس فانما يرجعون فيها ليعلم حكم الله ورسوله كما يستفتى المستفتى ، وكما كانوا فى الحدود لمعرفة الامر الشرعى ، والنبى ﷺ اعطى المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين ما اعطاهم ؛ فقيل : إن ذلك كان من الخمس ؛ وقيل : انه كان من اصل الغنيمة ؛ وعلى هذا القول فهو فعل ذلك لطيب نفوس المؤمنين بذلك ؛ ولهذا أجاب من عتب من الأنصار بما ازال عتبه واراد تعويضهم عن ذلك .

ومن الناس من يقول الغنيمة قبل القسمة لم يملكها الغانمون ؛ وان للامام ان يتصرف فيها باجتهاده كما هو مذكور فى غير هذا الموضع .

(العبادة والسوال وسيلتان لتحقيق توحيد الالهية وتوحيد الربوبية)

فان المقصود هنا بيان حال العبد المخلص لله الذى يعبده ويستعينه ، فيعمل له ويستعينه ويحقق قوله :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

= واخرج ابوداود(٣/١٤٢-١٤٣ رقم٢٦٩٤) والنسائى(٧/١٣١) واحمد والبيهقى(٦/٣٣٦-٣٣٧) عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده بمثله . وراجع «ارواء الغليل»(١٢٤٠)

توحيدالالهية وتوحيدالربوبية ؛ وان كانت الالهية تتضمن الربوبية ؛ والربوبية تستلزم الالهية ؛ فان احدهما اذا تضَمَّنَ الآخرَ عند الانفراد لم يمنع ان يختص بمعناه عند الاقتران ، كما فى قوله :

﴿ قُلْ اَعُوْذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، اِلٰهِ النَّاسِ ﴾[٩٨]

وفى قوله :

﴿ اَلْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ ﴾

فجمع بين الاسمين : اسم الاله واسم الرب . فان «الاله» هو المعبود الذى يستحق ان يعبد . و«الرب» هو الذى يرب عبده فيدبره .

(الله والرب)

ولهذا كانت العبادة متعلقة باسمه الله ، والسؤال متعلقا باسمه الرب ، فان العبادة هى الغاية التى لها خلق الخلق ، والالهية هى الغاية ، الربوبية تتضمن خلق الخلق وانشاءهم فهو متضمن ابتداء حالهم ، والمصلى اذا قال :

﴿ اِيَّاكَ نَعْبُدُ وَاِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ﴾

فبدأ بالمقصود الذى هو الغاية على الوسيلة التى هى البداية ، فالعبادة غايةٌ مقصودةٌ ، والاستعانة وسيلة اليها ، تلك حكمة وهذا سبب ، والفرق بين العلة الغائية والعلة الفاعلية معروف ، ولهذا يقال : أول الفكرة آخر العمل وأول البغية آخر الدرك .

---

(٩٨) سورة الناس(١/١١٤-٣)

فالعلة الغائية متقدمة فى التصور والارادة وهى متـأخرة فى الوجود ، فالمؤمن يقصد عبـادةالله ابتـداء وهو يعلم ان ذلـك لايحصل إلا بـاعـانتـه فيقول :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ﴾ .

ولما كانت العبادة متعلقة باسمه : الله تعـالى جـاءت الأذكار المشروعـة بهذا الاسم مثل كلمـات الأذان ، الله اكبر ، الله اكبر . ومثل الشهـادتين : اشهد ان لااله الاالله . اشهد ان محمدا رسولالله ومثل التشهـد : «التحيـات لله» ومثل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير : سبحانالله ، والحمد لله ، لااله الاالله ، الله اكبر .

وأما السؤال فكثيرا مايجىء باسم الرب كقول آدم وحواء :

﴿ رَبَّنَـا ظَلَمْنَـا أَنْفُسَنَـا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَـا وَتَرْحَمْنَـا لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ ﴾[٩٩]

وقول نوح :

﴿ رَبِّ إِنِّى أَعُـوذُبِـكَ أَنْ اسْـأَلَـكَ مَـالَيْسَ لِى بِـهِ عِلْمٌ ﴾[١٠٠]

وقول موسى :

﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْلِى ﴾[١٠١]

قول الخليل :

---

(٩٩) سورة الاعراف(٢٣/٧)

(١٠٠) سورة هود(٤٧/١١)

(١٠١) سورة القصص(١٦/٢٨)

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ[١٠٢] الآية .

وقوله مع اسماعيل :

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا اِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيم ﴾[١٠٣]

وكذلك قول الذين قالوا :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَّ فِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَّقِنَا عَذَابَ النَّار ﴾[١٠٤] ومثل هذا كثير .

وقد نقل عن مالك انه قال : أكره للرجل ان يقول فى دعائه : ياسيدى ! ياسيدى ! ياحنان ! ياحنان ! ولكن يدعو بما دعت به لأنبياء ، ربنا ! ربنا ! نقله عنه العتبى[١٠٥] فى العتيبة .

وقال تعالى : عن اولى الالباب :

﴿ اَلَّذِيْنَ يَذْكُرُوْنَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُوْدًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ

---

(١٠٢) سورة ابراهيم(١٤/٣٧)

(١٠٣) سورة البقرة(٢/١٢٧)

(١٠٤) ايضاً(٢/٢٠١)

(١٠٥) العتبى ، ابوعبدالله ، محمد بن احمد بن عبدالعزيز بن عتبة بن حميد بن عتبة بن ابىسفيان ، الاموى السفيانى القرطبى ، المالكى(م٢٥٥هـ)

فقيه الاندلس ، وصاحب كتابالعتبية رحل وأخذ عن سحنون وأصبغ وبطرائها ، وكان حافظا للمسائل ، جامعا لها ، عالما بالنوازل جمع المستخرجة (وهى العتبية) واكثر فيها من الروايات المطروحة ، والمسائل الشاذة

راجع ترجمته فى «تاريخ علماءالاندلس»(٢/٦ـ٧) «السير»(١٢/٣٣٥ـ٣٣٦) «الوافى»(٢/٣٠) «ترتيبالمدارك»(٣/١٤٤ـ١٤٦) «الديباج المذهب»(٢٣٨)

﴿ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار ﴾[106] الآيات .

فاذا سبق الى قلب العبد قصد السؤال ناسب أن يسأله باسمه الرب . وان سأله باسمه الله لتضمنه اسم الرب كان حسنًا ، واما اذا سبق الى قلبه قصد العبادة فاسم الله أولى بذلك . اذا بدأ بالثناء ذكر اسم الله ، واذا قصد الدعاء باسم الرب ، ولهذا قال يونس :

﴿ لااِلَـهَ إلاّ أنْتَ سُبْحَانَكَ إنِّى كُنْتُ مِنَ الظالِمِيْنَ ﴾[107]

وقال آدم :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنْفُسَنَا وَإنْ لَمْ تَغْفِرْلَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ ﴾[108]

فان يونس عليه السلام ذهب مغاضبا ، وقال تعالى :

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَتَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾[109]

وقال تعالى :

﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوْتُ وَهُوَ مُلِيْمٌ ﴾[110]

ففعل ما يلام عليه فكان المناسب لحاله ان يبدأ بالثناء على ربه ، والاعتراف بانه لااله الا هو فهو الذى يستحق ان يُعْبد دون غيره فلا يُطاع الهوى ، فان اتباع الهَوى يضعف عبادة الله وحده .

---

(١٠٦) سورة ال عمران(٣/١٩١)

(١٠٧) سورة الأنبياء(٢١/٨٧)

(١٠٨) سورة الاعراف(٧/٢٣)

(١٠٩) سورة القلم(٦٨/٤٨)

(١١٠) سورة الصافات(٣٧/١٤٢)

وقدروى ان يونس عليه السلام ندم على ارتفاع العذاب عن قومه بعد ان اظلّهم وخاف ان ينسبوه الى الكذب فغاضَب ، وفعل مااقتضى الكلام الذى ذكره الله تعالى وان يقال ﴿ لااله الاالله ﴾ وهذا الكلام يتضمن براءة ماسوى الله من الالهية ، سواء صدر ذلك عن هوى النفس او طاعة الخلق او غير ذلك . ولهذا قال :

﴿ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِيْنَ ﴾ .

والعبد يقول مثل هذا الكلام فيما يظنه وهو غير مطابق ، وفيما يريده وهو غير حسن .

وأما آدم عليه السلام فانه اعترف اولا بذنبه فقال : ﴿ظلمنا انفسنا﴾ ولم يكن عند آدم من ينازعه الارادة لما امرالله به . مما يزاحم الالهية بل ظن صدق الشيطان الذى :

﴿ قَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِيْنَ ، فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ ﴾[111]

فالشيطان غرّهما وأظهر نُصحهما فكانا فى قبول غروره وما اظهر من نصحه حالهما مناسبًا لقولهما : ﴿ ربنا ظلمنا انفسنا﴾ لما حصل من التفريط ، لالأجل هوى وحظ يزاحم الالهية ، وكانا محتاجَيْنِ الى ان يربهما ربوبية تكمل علمهما وقصدهما ، حتى لايغترّا بمثل ذلك ، فهما يشهدان حاجتهما الىالله ربهما الذى لايقضى حاجتهما غيره .

وذوالنُّون شهد ماحصل من التقصير فى حق الالهية بماحصل من المغاضبة وكراهة انجاء اولئك ، ففى ذلك من المعارضة فى الفعل لحب شيئ آخر مايوجب تجريد محبته لله وتألهه له وان يقول : (لااله الاانت) فان قول العبد : لااله الاانت ، يمحو ان يتخذ الهه هواه . وقدروى :

---

(١١١) سورة الاعراف(٧/٢١ـ٢٢)

« ماتحت أديم السماء الهٌ يُعبَد اعظم عندالله من هوى مُتَّبَع »[112]

فكمّل يونس صلوات‌الله عليه تحقيق الهيته لله ، ومحو الهوى الذى يتخذ الهًا من دونه . فلم يبق له صلوات‌الله عليه وسلامه عند تحقيق قوله « لااله الاانت » ارادة تزاحم الهية الحق ، بل كان مخلصًا لله الدين اذكان من افضل عبادالله المخلصين .

و(ايضًا) فمثل هذه الحال تعرض لمن تعرض له ، فيبقى فيه نوع مغاضبة للقدر ومعارضة له فى خلقه وامره ، ووساوس فى حكمته ورحمته ، فيحتاج العبد ان ينفى عنه شيئين : الآراء الفاسدة والأهواء الفاسدة ، فيعلم ان الحكمة والعدل فيما اقتضاه علمه وحكمته لافيما اقتضاه علم‌العبد وحكمته ، ويكون هواه تبعًا لماامرالله به ، فلايكون له مع امرالله وحكمه هوى يخالف ذلك . قال الله تعالى :

﴿ فَلاَوَرَبِّكَ لايُوْمِنُوْنَ حَتَّى يُحَكِّمُوْكَ فِيْمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لاَيَجِدُوْا فِىْ أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّاقَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوْا تَسْلِيْمًا ﴾[113]

وقدروى عنه ﷺ انه قال :

« والذى نفسى بيده لايؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعًا لماجئت به »[114] رواه ابوحاتم فى صحيحه .

---

(١١٢) رواه الطبرانى فى «الكبير» عن ابى‌امامة . وقال الهيثمى : فيه الحسن بن دينار وهو متروك الحديث(مجمع‌الزوائد،١/١٨٨) .

(١١٣) سورة النساء(٤/٦٥)

(١١٤) ورواه البغوى فى «شرح السنة»(١/٢١٣)

وفى الصحيح[115]

« ان عمر قال لـه : يـارسول‌الله ! والله لأنت احب الي من نفسى . قال : الآن ياعمر »

وفى الصحيح[116] عنه ﷺ انه قال :

« لا يـؤمن احـدكم حتى اكـون احب اليـه من ولـده ووالده والناس اجمعين »

وقال تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ، وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا . وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُوْلِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيْلِهِ فَتَرَبَّصُوْا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾[117]

فاذا كان الايمان لايحصل حتى يحكم العبد رسولـه ويسلم لـه ، ويكون هواه تبعًا لماجاء به ، ويكون الرسول والجهاد فى سبيله مقـدمًا على حب الانسان نفسه وماله واهله ، فكيف فى تحكيمـه‌الله تعـالى والتسليم لـه ؟ ! فمن رأى قومًا يستحقون العذاب فى ظنه ، وقدغفرالله لهم ورحمهم ، وكره هو ذلك ، فهذا امان‌يكون عن ارادة تخالف حكم‌الله واما عن ظن يخالف علم‌الله ، والله عليم حكيم . واذا علمت انــه عليم ، وانــه حكيم لم‌يبـق لكراهية مـافعلـه وجـه ، وهـذا يكون فيا امر بـه وفيا خلقـه ولم‌يـأمرنـا ان‌نكرهه ونغضب عليه .

---

(115) اخرجه البخارى فى الايمان والنذور(٢١٨/٧) واحمد فى «المسند»(٣٣٦/٤)

(116) رواه البخـارى عن ابى هريرة وعن انس(٩/١) ومسلم عن انس(٦٧/١) وهـو عنـد البيهقى فى «شعب الايمان»(الشعبة١٤) .

(117) سورة التوبة(٢٤/٩)

فأما ماامرنا بكراهته من الموجودات : كالكفر والفسوق والعصيان فعلينا انْنطيعه فى امره بخلاف توبته على عباده وانجائه اياهم من العذاب فان هذا من مفعولاته التى لم يأمرنا ان نكرهها ، بل هى ممايحبها فانه يحب التوابين ويحب المتطهرين . فكراهة هذا من نوع اتباع الارادة المزاحمة للالهية . فعلى صاحبها ان يحقق توحيد الالهية فيقول : لااله الاانت .

فعلينا ان نحب مايحب ، ونرضى مايرضى ، ونأمر بمايأمر ، وننهى عماينهى . فاذا كان ﴿ يُحِبُّ التَّوَّابِيْنَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِيْنَ ﴾[118] فعلينا ان نحبهم ؛ ولانأله مراداتنا المخالقة لمحابه .

(عصمة الأنبياء)

والكلام فى هذا المقام مبنى على «اصل»: وهو أن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه ، وفى تبليغ رسالاته باتفاق الأمة ، ولهذا وجب الايمان بكل ماأوتوه كما قال تعالى :

﴿ قُوْلُوْا آمَنَّا بِاللهِ وَمَاأُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَاأُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْمعِيْلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ، وَمَاأُوْتِيَ مُوْسَى وَعِيْسَى ، وَمَاأُوْتِيَ النَّبِيُّوْنَ مِنْ رَّبِّهِمْ ؛ لاَنُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُوْنَ فَإِنْ آمَنُوْا بِمِثْلِ مَاآمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِاهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِيْ شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيْكَهُمُ اللهُ وَ هُوَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ ﴾[119]

---

(118) راجع سورة البقرة(٢/٢٢٢)

(119) نفس السورة(٢/١٣٦ـ١٣٧)

وقال :

﴿ وَلَكِنَّ ٱلبِرَّ مَنْ آمَنَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ الآخِرِ وَٱلْمَلَٰئِكَةِ وَٱلْكِتَابِ وَٱلنَّبِيِّيْنَ ﴾[120]

وقال :

﴿ آمَنَ ٱلرَّسُوْلُ بِمَاأُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَّبِّهِ وَٱلْمُؤْمِنُوْنَ كُلٌّ آمَنَ بِٱللهِ وَمَلَٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَنُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ ، وَقَالُوْا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيْرُ ﴾[121]

بخلاف غيرالأنبياء فانهم ليسوا معصومين كاعُصم الأنبياء ، ولوكانوا أولياءالله ، ولهذا من سبَّ نبيّا من الأنبياء قتل باتفاقالفقهاء ، ومن سبَّ غيرهم لم يقتل .

وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هى التى يحصل بها مقصود النبوة والرسالة ؛ فان « النبى » هو المنبئ عن الله ، و« الرسول » هو الذى ارسلهالله تعالى ، وكل رسول نبي وليس كل نبى رسولاً ، والعصمة فيايبلغونه عن الله ثابتة فلايستقر فى ذلك خطأ باتفاقالمسلمين .

(تفنيد قصة الغرانيق)

ولكن هل يصدر مايستدركهالله فينسخ مايلقى الشيطان ويحكم الله آياته ؟ هذا فيه قولان : والمأثور عن السلف يوافق القرآن بذلك .

---

(١٢٠) ايضاً(١٧٧/٢)

(١٢١) ايضاً(٢٨٥/٢)

والذين منعوا ذلك من المتـأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيـادة فى سورة النجم بقولـه : تلـك الغرانيـق العلى ، وان شفـاعتهم لترتجى وقـالـوا : ان هذا لم يثبت ، ومن علم انه ثبت : قال هـذا ألقـاه الشيطـان فى مسـامعهم ولم يلفظ بـه الرسول ﷺ ، ولكن السؤال وارد على هـذا التقـدير ايضـا ، وقالوا فى قوله :

﴿ إلاَّ إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَـانُ فِى أُمْنِيَّتِـهِ ﴾[١٢٢] هـو حديث النفس .

وأما الـذين قرروا مـانقل عن السلف فقـالوا هـذا منقول نقلا ثـابتـا لا يمكن القدح فيه والقرآن يدل عليه بقوله :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَـا مِنْ قَبْلِـكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَنَبِىٍّ إلاَّ إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيطَانُ فِى أُمْنِيَّتِـهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَـا يُلْقِى الشَّيْطَـانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَـاتِـهِ وَاللهُ عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ ، لِيَجْعَلَ مَـا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَـةً لِّلَّـذِيْنَ فِى قُلُـوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَـةِ قُلُـوبُهُمْ وَإنَّ الظَّـالِمِيْنَ لَفِى شِقَـاقٍ بَعِيْدٍ ، وَلِيَعْلَمَ الَّـذِيْنَ أُوْتُوا الْعِلْمَ أَنَّـه الْحَقُّ مِنْ رَّبِّـكَ فَيُومِنُـوا بِـه فَتُخْبِتَ لَـهُ قُلُـوبُهُمْ وإنَّ اللهَ لَهَـادِ الَّـذِيْنَ آمَنُوا إلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ ﴾[١٢٣]

فقـالوا الآثـار فى تفسير هـذه الآيـة معروفـة ثـابتـة فى كتب التفسير والحديث ، والقرآن يوافق ذلك فان نسخ الله لمـا يلقى الشيطـان واحكامـه آيـاتـه انمـا يكون لرفع مـاوقع فى آيـاتـه ، وتمييز الحق من البـاطـل حتى

---

(١٢٢) سورة الحج(٢٢/٥٢)

وللشيـخ المحـدث نـاصرالـدين الالبـانى رسـالـة مفيــدة سماهـا «نصب المجـانيـق على قصة الغرانيق» .

(١٢٣) سورة الحج(٢٢/٥٢_٥٤)

لاتختلط آياته بغيرها ، وجعل ماالقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض ، والقاسية قلوبهم انما يكون اذا كان ظاهرا يسمعه الناس لاباطنا فى النفس والفتنة التى تحصل بهذا النوع من النسخ من جنس الفتنة التى تحصل بالنوع الآخر من النسخ .

وهذا النوع أدل على صدق الرسول ﷺ وبُعده عن الهوى من ذلك النوع ، فانه اذا كان يأمر بامر ثم يأمر بخلافه وكلاهما من عندالله وهو مصدق فى ذلك ، فاذا قال عن نفسه ان الثانى هو الذى من عندالله وهو الناسخ وان ذلك المرفوع الذى نسخهالله ليس كذلك كان أدل على اعتماده للصدق وقوله الحق ، وهذا كما قالت عائشة رضىالله عنها(١٢٤) :

« لو كان محمد كاتما شيئا من الوحى لكتم هذه الآية ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَااللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾(١٢٥)» .

ألا ترى ان الذى يعظم نفسه بالباطل يريد ان ينصر كل ماقاله ولو كان خطأ ، فبيان الرسول ﷺ ان الله احكم آياته ونسخ ماالقاه الشيطان هو ادل على تحريه للصدق وبراءته من الكذب ، وهذا هو المقصود بالرسالة فانه الصادق المصدوق ﷺ تسليما ، ولهذا كان تكذيبه كفرًا محضا بلاريب .

واما العصمة فى غير مايتعلق بتبليغ الرسالة فللناس فيه نزاع ، هل هو ثابت بالعقل او بالسمع ؟ ومتنازعون فى العصمة من الكبائر والصغائر او من بعضها ، ام هل العصمة انما هى الاقرار عليها لا فى فعلها ؟ ام لايجب القول بالعصمة الا فى التبليغ فقط ؟ وهل تجب العصمة من الكفر

---

(١٢٤) اخرجه البخارى فى التوحيد(١٧٥/٨) ومسلم فى الايمان(١٦٠/١رقم٢٨٨) والترمذى فى التفسير(٣٥٢/٥رقم٣٢٠٧) واحمد فى «المسند»(٢٤١/٦) وانظر «الدر المنثور»(٦١٣/٦) .

(١٢٥) سورة الاحزاب(٣٧/٣٣)

والذنوب قبل المبعث ام لا ؟ والكلام على هذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

والقول الذى عليه جمهور الناس ، وهو الموافق للآثار المنقولة عن السلف اثبات العصمة من الاقرار على الذنوب مطلقا ، والرد على من يقول انه يجوز اقرارهم عليها ، وحجج القائلين بالعصمة اذا حررت انما تدل على هذا القول .

وحجج النفاة لاتدل على وقوع ذنب اقر عليه الانبياء ، فان القائلين بالعصمة احتجوا بأن التأسّى بهم مشروع ، وذلك لايجوز الا مع تجويز كون الأفعال ذنوبًا ، ومعلوم ان التأسّى بهم انما هو مشروع فيما أُقِرُّوا عليه دون مانُهُوا عنه ورجعوا عنه ، فأما مانُسخ من الأمر والنهى فلايجوز جعله مأمورا به ولامنهيًا عنه ، فضلا عن وجوب اتباعه والطاعة فيه .

وكذلك مااحتجوا به من ان الذنوب تُنافى الكمال ، او انها ممن عظمت عليه النعمة اقبح ، او انها توجب التنفير ، او نحو ذلك من الحجج العقلية ، فهذا انما يكون مع البقاء على ذلك وعدم الرجوع ، والا فالتوبة النصوح التى يقبلهاالله يَرفع بها صاحبَها الى اعظم مما كان عليه ، كما قال بعض السلف : كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة .

وقال آخر : لو لمتكن التوبةُ احبّ الأشياء اليه ، لماابتَلَى بالذنب اكرمَ الخلق عليه .

وقدثبت فى الصحاح[١٢٦]حديث التوبة :

« لله افرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلا » الخ .

---

(١٢٦) اخرجه البخارى فى الدعوات(١٤٦/٧) ومسلم فى التوبة(٢١٠٤/٣رقم٢٧٤٧) من حديث انس

واخرجه البيهقى فى «شعب الايمان»(الشعبة٤٧) وراجع تخريجه فيه .

وقدقال تعالى :

﴿ اِنَّ الله يُحِبُّ التَّوَابِيْنَ ويُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِيْنَ ﴾[١٢٧]

وقال تعالى :

﴿ إلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾[١٢٨].

وقدثبت فى الصحيح[١٢٩] حديث الذى يعرض الله صغار ذنوبه ويخبئ عنه كبارها وهو مشفق من كبارها ان تظهر ، فيقول الله له :

« انى قدغفرتها لك وابدلتك مكان كل سيئة حسنة فيقول : اى رب ! ان لى سيئات لم ارها » .

اذا رأى تبديل السيئات بالحسنات طلب رؤية الذنوب الكبار التى كان مشفقًا منها ان تظهر ، ومعلوم ان حاله هذه مع هذا التبديل اعظم من حاله لو لم تقع السيئات ولا التبديل .

وقال طائفة من السلف منهم سعيد بن جبير : ان العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار ، وان العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة ، يعمل الحسنة فيُعْجب بها ويفتخرُ بها حتى تدخله النار ، ويعمل السيئة فلايزال خوفُه منها وتوبته منها حتى تدخله الجنة .

وقدقال تعالى :

---

(١٢٧) سورة البقرة(٢٢٢/٢)

(١٢٨) سورة الفرقان(٧٠/٢٥)

(١٢٩) اخرجه مسلم فى الايمان(١٧٧/١رقم١٩٠) والترمذى فى صفة جهنم(٧١٣/٤رقم٢٥٩٦) واحمد فى «المسند»(١٥٧/٥ـ١٧٠) والبيهقى فى «الاسماء والصفات»(٧٤) .

﴿ وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ، لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(١٣٠)

فغاية كل انسان ان يكون من المؤمنين والمؤمنات الذين تاب الله عليهم .

وفى الكتاب والسنة الصحيحة والكتب التى انزلت قبل القرآن مما يوافق هذا القول مايتعذر إحصاؤه .

والرادون لذلك تأولوا ذلك بمثل تأويلات الجهمية والقدرية والدهرية لنصوص «الأسماء والصفات» ونصوص «القدر» ونصوص «المعاد» وهى من جنس تأويلات القرامطة الباطنية التى يعلم بالاضطرار انها باطلة ، وانها من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، وهؤلاء يقصد احدهم تعظيم الأنبياء فيقع فى تكذيبهم ، ويريد الايمان بهم فيقع فى الكفر بهم .

ثم ان العصمة المعلومة بدليل الشرع والعقل والاجماع ، وهى « العصمة فى التبليغ » لم ينتفعوا بها إذ كانوا لايُقِرُّوْنَ بموجب مابَلَّغْته الأنبياء ، وانما يقرون بلفظ حرَّفوا معناه ، أو كانوا فيه كالأميين الذين لايعلمون الكتاب الا أمانىّ ، والعصمة التى كانوا ادعوها لوكانت ثابتة لم ينتفعوا بها ولاحاجة بهم اليها عندهم ، فانها متعلقة بغيرهم لابما امروا بالايمان به ، فيتكلم احدهم فيها على الأنبياء بغير سلطان من الله ، ويدع مايجب عليه من تصديق الأنبياء وطاعتهم ، وهو الذى تحصل به السعادة وبضده تحصل الشقاوة قال تعالى :

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾(١٣١) الآية .

---

(١٣٠) سورة الاحزاب(٧٣/٣٣)

(١٣١) سورة النور(٥٤/٢٤)

(توبة الأنبياء واستغفارهم)

والله تعالى لم يذكر فى القرآن شيئا من ذلك عن نبى من الأنبياء الا مقرونًا بالتوبة والاستغفار ، كقول آدم وزوجته :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ ﴾[١٣٢]

وقول نوح :

﴿ رَبِّ إِنِّى أَعُوْذُبِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَالَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِيْنَ ﴾[١٣٣]

وقول الخليل عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْلِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤمِنِيْنَ يَوْمَ يَقُوْمُ الْحِسَابُ ﴾[١٣٤]

وقوله :

﴿ وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَّغْفِرَ لِى خَطِيْئَتِى يَوْمَ الدِّيْنِ ﴾[١٣٥]

---

(١٣٢) سورة الاعراف(٢٣/٧)

(١٣٣) سورة هود(٤٧/١١)

(١٣٤) سورة ابراهيم(٤١/١٤)

(١٣٥) سورة الشعراء(٨٢/٢٦)

وقول موسى :

﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْلَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِيْنَ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ ﴾(١٣٦)

وقوله :

﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْلِي ﴾(١٣٧)

وقوله :

﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤمِنِيْنَ ﴾(١٣٨)

وقوله تعالى عن داود :

﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذلِكَ وَانَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾(١٣٩)

وقوله تعالى عن سليمان :

﴿ رَبِّ اغْفِرْلِي ، وهَبْ لِي مُلْكًا لاَيَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِى ، اِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾(١٤٠)

---

(١٣٦) سورة الاعراف(٧/١٥٥ـ١٥٦)

(١٣٧) سورة القصص(٢٨/١٦)

(١٣٨) سورة الاعراف(٧/١٤٣)

(١٣٩) سورة ص(٣٨/٢٤ـ٢٥)

(١٤٠) ايضا(٣٨/٣٥)

وأما يوسف الصديق فلم يذكر الله عنه ذنبا فلهذا لم يذكر الله عنه مايناسب الذنب من الاستغفار . بل قال :

﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِيْنَ ﴾[١٤١]

فاخبر انه صرف عنه السوء والفحشاء ، وهذا يدل على انه لم يصدر منه سوء ولافحشاء .

وأما قوله :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ، لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾[١٤٢]

فالهم اسم جنس تحته «نوعان» كما قال الامام احمد الهم همّان : هم خطرات ، وهم إصرار .

وقدثبت فى الصحيح[١٤٣] عن النبى ﷺ :

« ان العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه ، وإذا تركها لله كتبت له حسنة وان عملها كتبت له سيئة واحدة »

وان تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ولاتكتب عليه سيئة .

---

(١٤١) سورة يوسف(١٢/٢٤)

(١٤٢) نفس الآية

(١٤٣) اخرجه البخارى فى الرقاق(١٨٧/٧) ومسلم فى الايمان(١١٨/١رقم١٣١) عن ابن عباس واخرجه البيهقى فى «شعب الايمان»(حديث رقم٣٢٨) وانظر تخريجه فيه .

ويوسف ﷺ هم هما تركه لله ، ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لاخلاصه ، وذلك انما يكون اذا قام المقتضى للذنب وهو الهم ، وعارضه الاخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله .

فيوسف عليه السلام لم يصدر منه الا حسنة يثاب عليها ، وقال تعالى :

﴿ إنَّ الَّذِيْنَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُوْنَ ﴾(١٤٤)

وأماماينقل : من انه حل سراويله ، وجلس مجلس الرجل من المرأة ، وانه رأى صورة يعقوب عاضًا على يده ، وأمثال ذلك ، فكله مما لم يخبرالله به ولارسوله ، ومالم يكن كذلك فانما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من اعظم الناس كذبا على الأنبياء وقدحًا فيهم ، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله ، لم ينقل من ذلك احد عن نبينا ﷺ حرفا واحدا .

(خطاء المفسرين)

وقوله :

﴿ وَمَاأُبَرِّئُ نَفْسِى انَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ الاَّ مَارَحِمَ رَبِّى ﴾(١٤٥)

فمن كلام امرأة العزيز ، كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينه ، لايرتاب فيها من تدبر القرآن ، حيث قال تعالى :

---

(١٤٤) سورة الاعراف(٢٠١/٧)

(١٤٥) سورة يوسف(٥٣/١٢)

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائتُونِى بِهِ ، فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَابَالُ النِّسْوَةِ اللاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ، قَالَ مَاخَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُّنَّ يُوسُفَ عنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ للهِ مَاعَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَاَنَّ اللهَ لاَيَهْدِىْ كَيْدَ الْخَائِنِيْنَ وَمَاأُبَرِّئُ نَفْسِى انَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ الاَّ مَارَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيْمٌ ﴾[146]

فهذا كله كلام امرأة العزيز ، ويوسف إذ ذاك فى السجن ، لم يحضر بعد الى الملك ، ولاسمع كلامه ولارآه ؛ ولكن لما ظهرت براءته فى غيبته ــ كما قالت امرأةالعزيز : ﴿ ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب ﴾ اى لم اخنه فى حال مغيبه عنى وان كنت فى حال شهوده راودته ــ فحينئذ :

﴿ قَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِىْ بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِىْ ، فَلَمَّاكَلَّمَهُ قَالَ : إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِيْنٌ أَمِيْنٌ ﴾[147]

وقدقال كثير من المفسرين ان هذا من كلام يوسف ، ومنهم من لم يذكر الا هذا القول ، وهو قول فى غاية الفساد ، ولادليل عليه ؛ بل الادلة تدل على نقيضه ، وقد بسط الكلام على هذه الامور فى غير هذا الموضع .

و(المقصود هنا) ان ماتضمنته « قصة ذىالنون » مما يلام عليه كله مغفور بدّله الله به حسنات ، ورفع درجاته ، وكان بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته اعظم درجة منه قبل ان يقع ماوقع ، قال تعالى :

---

(١٤٦) ايضا(١٢/٥٠ـ٥٣)

(١٤٧) ايضا(١٢/٥٤)

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ، فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(١٤٨)

وهذا بخلاف حال التقام الحوت فانه قال :

﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾(١٤٩)

فاخبر انه فى تلك الحال مليم ، و « المليم » الذى فعل مايلام عليه ، فالملام فى تلك الحال لا فى حال نبذه بالعراء وهو سقيم ، فكانت حاله بعد قوله : ﴿ **لاإله إلاأنت سبحانك انى كنت من الظالمين** ﴾ ارفع من حاله قبل ان يكون ماكان ، والاعتبار بكمال النهاية لابماجرى فى البداية ، والاعمال بخواتيمها .

والله تعالى خلق الانسان واخرجه من بطن امه لايعلم شيئا ، ثم علّمه فنقله من حال النقص الى حال الكمال ، فلايجوز ان يعتبر قدر الانسان بماوقع منه قبل حال الكمال ، بل الاعتبار بحال كماله ، ويونس ﷺ وغيره من الأنبياء فى حال النهاية حالهم اكمل الاحوال .

ومن هنا غلط من غلط فى تفضيل الملائكة على الأنبياء والصالحين فانهم اعتبروا كمال الملائكة مع بداية الصالحين ونقصهم فغلطوا ؛ ولواعتبروا حال الأنبياء والصالحين بعد دخول الجنان ، ورضى الرحمن ، وزوال كل ما فيه نقص وملام ، وحصول كل ما فيه رحمة وسلام ، حتى استقر بهم القرار :

---

(١٤٨) سورة القلم(٦٨/٤٨-٥٠)

(١٤٩) سورة الصافات(٣٧/١٤٢)

﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ، سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾(١٥٠)

فاذا اعتبرت تلك الحال ظهر فضلها على حال غيرهم من المخلوقين والا فهل يجوز لعاقل ان يعتبر حال احدهم قبل الكمال فى مقام المدح والتفضيل والبراءة من النقائص والعيوب .

ولواعتبر ذلك لاعتبر احدهم وهو نطفة ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم حين نفخت فيه الروح ، ثم هو وليد ، ثم رضيع ثم فطيم ، الى أحوال أخر ؛ فعلم ان الواحد فى هذه الحال لم تقم به صفات الكمال التى يستحق بها كمال المدح والتفضيل ، وتفضيله بها على كل صنف وجيل ؛ وانما فضله باعتبار المآل ، عند حصول الكمال .

(العبرة بالعاقبة فى الأفضلية)

ومايظنه بعض الناس انه من ولد على الاسلام فلم يكفر قط أفضلُ ممن كان كافرًا فأسلم ليس بصواب ؛ بل الاعتبار بالعاقبة وأيهما كان أتقى لله فى عاقبته كان أفضل . فانه من المعلوم ان السابقين الاولين من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا بالله ورسوله بعد كفرهم هم افضل ممن ولد على الاسلام من اولادهم وغير اولادهم ؛ بل من عرفَ الشرَّ وذاقه ، ثم عرف الخير وذاقه فقدتكون معرفته بالخير ومحبته له ، ومعرفته بالشر وبغضه له أكملَ ممن لم يعرف الخير والشر ويذقهما كما ذاقهما ؛ بل من لم يعرف إلا الخير فقد يأتيه الشرُّ فلايعرف انه شرٌّ ، فاما ان يقع فيه ، وإما ان لا ينكره كما انكره الذى عرفه .

---

(١٥٠) سورة الرعد(١٣/٢٣ـ٢٤)

ولهذا قال عمر بن الخطاب رضى‌الله عنه : انما تُنقض عُرى الاسلام عُروةً عُروةً اذا نشأ فى الاسلام من لم يعرف الجاهلية .

وهو كما قال عمر ؛

فان كمال الاسلام هو بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتمام ذلك بالجهاد فى سبيل الله . ومن نشأ فى المعروف لم يعرف غيره ، فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ماعند من عَلمه ، ولا يكون عنده من الجهاد لاهله ماعند الخبير بهم ، ولهذا يوجد الخبير بالشر واسبابه اذا كان حسن القصد عنده من الاحتراز عنه ومنع أهله والجهاد لهم ماليس عند غيره .

ولهذا كان الصحابة رضى‌الله عنهم اعظم ايمانا وجهادا ممن بعدهم ، لكمال معرفتهم بالخير والشر ، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر ، لما علموه من حسن حال الاسلام والايمان والعمل الصالح ، وقبح حال الكفر والمعاصى ، ولهذا يوجد من ذاق الفقر والمرض والخوف احرص على الغنى والصحة والأمن ممن لم يذق ذلك . ولهذا يقال :

وَالضِدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ[151]

ويقال[152] :

وبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأشْيَاءُ

وكان عمر بن الخطاب رضى‌الله عنه يقول : لست بِخِبٍّ ، ولا يَخْدَعُنِى الخِبُّ .

---

(١٥١) هو عجز بيت صدره : ضدّان لما استجمعا حسنا .
منسوب للبحترى

(١٥٢) عجز بيت صدره : ونذيمهم وبهم عرفنا فضله .
وهو لأبى الطيب المتنبى ، راجع ديوانه(٢٢/١) .

فالقلب السليم المحمود هو الذى يريـد الخير لاالشر ، وكمال ذلـك بـان يعرف الخير والشر ، فأما من لا يعرف الشر فذاك نقص فيه لا يمدح به .

وليس المراد ان كل من ذاق طعم الكفر والمعـاصى يكون اعلم بـذلـك واكره لـه ممن لم يـذقـه مطلقـا ؛ فـان هـذا ليس بمُطَّرد ، بـل قـد يكـون الطبيبُ اعلم بالأمراض من المرضى ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام اطباء الأديان ، فهم اعلم الناس بما يُصْلِحُ القلوب ويُفسـدهـا ، وان كان احـدهم لم يذق من الشر ماذاقه الناس .

ولكن المراد ان من النـاس من يحصـل لـه ، بـذوقـه الشَرَّ من المعرفـة به ، والنفور عنه ، والمحبة للخير اذا ذاقه مالا يحصل لبعض النـاس ، مثل من كان مشركا او يهوديا او نصرانيا ، وقدعرف مافى الكفر من الشبهـات والأقوال الفـاسـدة والظلمـة والشر ، ثم شرح‌الله صـدره للاسـلام ، وعرّفـه محاسن الاسلام ، فانـه قـديكون ارغبَ فيـه ، واكره للكفر من بعض من لم يعرف حقيقـة الكفر والاسلام ، بـل هـو مُعْرِض عن بعض حقيقـة هـذا وحقيقة هذا ، او مقلّد فى مدح هذا وذم هذا .

ومثـال ذلـك من ذاك طعم الجُوع ثم ذاق طعم الشبع بعـده ، او ذاقَ المرضَ ثم ذاقَ طعمَ العـافيـة بعـده ، او ذاقَ الخوفَ ثم ذاقَ الأمنَ بعـده ، فـانَّ محبّـة هـذا ورغبتـه فى العـافيـة والأمن والشبع ، ونفوره عن الجـوع والخوف والمرض اعظمُ ممن لم يُبْتَل بذلك ، ولم يعرف حقيقته .

وكذلك من دخل مع اهل البدع والفجور ، ثم بيّن‌الله له الحقّ وتاب عليه توبة نصوحا ، ورزقه الجهاد فى سبيل‌الله ، فقد يكون بيانه لحالهم ، وهجره لمساويهم ، وجهاده لهم اعظم من غيره .

قال نعيم بن حماد الخزاعى ـــوكان شديدا على الجهميةـــ انـا شـديـد عليهم ، لانى كنت منهم[١٥٣].

---

(١٥٣) راجع «سير اعلام النبلاء»(٥٩٧/١٠) ، و«تاريخ بغداد»(٣٠٧/١٣) .

وقدقال‌الله تعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَافُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١٥٤] .

نزلت هذه[١٥٥] الآية فى طائفة من الصحابة كان المشركون فتنوهم عن دينهم ثم تاب‌الله عليهم ، فهاجروا الى‌الله ورسوله ، وجاهدوا وصبروا .

وكان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضى‌الله عنهما من اشد الناس على الاسلام فلما اسلما تقدما على من سبقهما الى الاسلام ، وكان بعض من سبقهما دونهما فى الايمان والعمل الصالح بما كان عندهما من كمال الجهاد للكفار والنصر لله ورسوله ، وكان عمر لكونه اكمل ايمانا واخلاصا وصدقا ومعرفة وفراسة ونورا ابعد عن هوى النفس واعلى همة فى اقامة دين‌الله ، مقدما على سائر المسلمين ، غير ابى‌بكر رضى‌الله عنهم اجمعين .

وهذا وغيره مما يبين ان الاعتبار بكمال النهاية لابنقص البداية .

ومايذكر فى الاسرائيليات : « ان‌الله قال لداود : اما الذنب فقد غفرناه ، واما الود فلايعود » فهذا لو عرفت صحته لم‌يكن شرعا لنا وليس لنا ان نبنى ديننا على هذا ، فان دين محمد ﷺ فى التوبة جاء بما لم‌يجئ به شرعٌ من قبله ، ولهذا قال :

«انا نبى الرحمة ، وانا نبى التوبة»[١٥٦]

وقدرُفِعَ به من الآصار والاغلال ماكان على من قبلنا .

---

(١٥٤) سورة النحل(١١٠/١٦) وفى الاصل «والدين هاجروا» .

(١٥٥) راجع «اسباب النزول» للواحدى(٢٨٨ـ٢٨٩) و«تفسير الطبرى»(١٢٣/١٤ـ١٢٤) .

(١٥٦) اخرج مسلم فى«صحيحه»(١٨٢٨/٣) عن ابى‌موسى الاشعرى قال :

(فضيلة التوبة)

وقد قال تعالى فى كتابه :

﴿ انّالله يُحِبُّ التَّوّابِيْنَ وَيُحِبُّ الْمَتَطَهِّرِيْنَ ﴾(١٥٧)

واخبر انه تعالى يفرح بتوبة عبده التائب اعظم من فرح الفاقد لمايحتاج اليه من الطعام والشراب والمركب اذا وجده بعد اليأس . فاذا كان هذا فرح الرب بتوبة التائب وتلك محبته ، كيف يقال : انه لايعود لمودته :

﴿ وَهُوَ الْغَفُوْرُ الْوَدُوْد ، ذُوْ الْعَرْشِ الْمَجِيْد ، فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيْدُ ﴾(١٥٨)

ولكن وده وحبُّه بحسب مايتقرب اليه العبد بعد التوبة ، فان كان مايأتى به من محبوبات الحق بعد التوبة افضل مما كان يأتى به قبل ذلك كانت مودته له بعد التوبة اعظم من مودته له قبل التوبة ، وان كان انقص كان الامر انقص ، فان الجزاء من جنس العمل ، وماربك بظلام للعبيد .

وقدثبت فى الصحيح(١٥٩) عن النبى ﷺ انه قال :

« يقول‌الله تعالى : مَنْ عَادَى لى وَلِيًّا فقد آذَنْتَه

= كان رسول‌الله ﷺ يسمى لنا نفسه اسماء فقال : «انا محمد ، واحمد ، والمقفى والحاشر ، ونبى التوبة ، ونبى الرحمة » .

واخرجه احمد فى «مسنده»(٤٠٤/٤) والبيهقى فى «دلائل النبوة»(١٥٧/١)

(١٥٧) سورة البقرة(٢٢٢/٢)

(١٥٨) سورة البروج(٨٥/١٤ـ١٦)

(١٥٩) اخرجه البخارى فى الرقاق من «صحيحه»(١٩٠/٧)

بالحَرب ، ومَاتَقَرّبَ الىّ عَبْدِى بِمثل أدَاء مـاافْتَرَضْتُ عَلَيْـهِ ، وَلاَيَـزَالُ عَبْـدِى يتقَرّبُ الىّ بـالنّـوافـل حتى احِبّـه ، فـاذا احببتُـه كُنتَ سمعـه الـذى يَسمـعُ بـه ، وبصرَه الـذى يُبْصر بـه ، ويَـدَه التى يَبطِشُ بهـا ، ورجلَه التى يَمشى بها : فبِى يَسمع ، وبِى يُبصِر ، وبِى يبطِش ،. وبِى يمشى ، ولئن ســألنى لأعْطِيَنّـــه ،ولئن استعاذنى لأُعِيذَنّه ، وما ترددتُ عن شيء انـا فـاعلـه تردُّدى عن قبضِ نفس عبـدى المـؤمن يَكره المـوتَ واكرهُ مساءتَه ولابُدّ له منه » .

ومعلـوم ان افضـل الأوليـاء بعـد الأنبيـاء هم السـابقـون الأولـونِ من المهاجرين والانصار ، وكانت محبـة الرب لهم ومودتـه لهم بعـد توبتهم من الكفر والفسوق والعصيان اعظم محبة ومودة ، وكلما تقربوا اليه بـالنوافل بعد الفرائض احبهم وودهم .

وقدقال تعالى :

﴿ عَسَى اللهُ أن يَجْعَـلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الّـذِيْنَ عَـادَيْتُم مِّنْهُم مُّوَدَّةً وَاللهُ قَدِيْرٌ وَاللهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴾[١٦٠]

نزلت فى المشركين[١٦١]الذين عـادوا الله ورسولـه مثل «اهل الاحزاب» كأبى سفيان بن حرب ، وأبى سفيـان بن الحـارث ، والحـارث بن هشـام ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمـة بن ابىجهـل ، وصفـوان بن أميـة ، وغيرهم . فـانهم بعـد معـاداتهم لله ورسـولـه جعـلالله بينهم وبين الرسـل والمـؤمنين مودة ، وكانـوا فى ذلـك متفـاضلين . وكان عكرمـة وسهيـل والحـارث بن

---

(١٦٠) سورة الممتحنة(٦٠/٧)

(١٦١) راجع «اسباب النزول»(٤٤٩ـ٤٥٠) وانظر «تفسير ابن كثير»(٤/٣٤٩)

هشـــام أعظم مــودةً من ابىسفيـــان بن حرب ونحــوه ، وقـــدثبت فى الصحيح[١٦٢] :

« ان هِنـد امرأة أبى سفيـان أم معـاويـة قـالت : والله يارسول‌الله ! ماكان على وجه الارض أهلُ خباء احبَّ الىَّ ان يَذِلُوا من اهل خِبائك ، وقـد اصبحتُ ومـاعلى وجـه الأرض أهـل خبــاء احبُّ الىَّ ان‌يَعِـزُّوا من اهـل خبائك فذكر النبى ﷺ لها نحو ذلك » .

(التوبة وسيلة للمغفرة والمودة)

ومعلوم ان المحبـة والمودة التى بين المؤمنين انمـا تكون تـابعـة لحبهم لله تعالى ، فان اوثق عرى الايمان الحبُّ فى‌الله ، والبغض فى الله ، فالحب لله من كال التوحيد ، والحب مع‌الله شرك ، قال تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُوْنِ‌اللهِ أَنْـدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ‌اللهَ وَالَّذِيْنَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَهَ ﴾[١٦٣]

فتلك المودة التى صارت بين الرسول والمؤمنين وبين الذين عادوهم من المشركين انمـا كانت مـودة لله ومحبـة لله ومن احب الله احبـــه الله ، ومن وداللهِ وده‌الله ، فعلم ان‌الله احبهم وودهم بعـد التـوبـة ، كمااحبـوه وودوه ، فكيف يقال : ان التائب انما تحصل له المغفرة دون المودة ؟ ! .

---

(١٦٢) رواه البخـــارى فى منـــاقب الانصـــار(٢٣٢/٤) وفى الايمـــان والنـــذور(٢٢٠/٧) وفى الاحكام(١٠٩/٨) ومسلم فى الاقضيـــــة(١٣٣٩/٢رقم٨-٩) والبيهقى فى «دلائـــل النبوة»(١٠٠/٥) .

(١٦٣) سورة البقرة(١٦٥/٢)

وان قال قائل : اولئك كانوا كفارًا ، ولم يعرفوا ان مافعلوه محرم ، بل كانوا جهالا ، بخلاف من علم ان الفعل محرم واتاه .

قيل : الجواب من وجهين :

احدها : انه ليس الأمر كذلك ، بل كان كثير من الكفار يعلمون ان محمدا رسول الله ، ويعادونه حسدًا وكبرًا وابوسفيان قدسمع من اخبار نبوة النبي ﷺ مالم يسمع غيره ، كما سمع من امية بن ابى الصلت ، وماسمعه من هرقل ملك الروم[١٦٤] ، وقداخبر عن نفسه انه لم يزل موقنًا ان امر النبي ﷺ سيظهر حتى ادخل الله عليه السلام ، وهو كاره له ، وقدسمع منه عام اليرموك[١٦٥] وغيره مادل على حسن اسلامه ومحبته لله ورسوله بعد تلك العداوة العظيمة .

وقدقال تعالى :

﴿وَالَّذِيْنَ لاَيَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَيَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَيَزْنُوْنَ وَمَنْ يَّفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيْهِ مُهَانًا ، إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾[١٦٦]

فاذا كان الله يبدل سيئاتهم حسنات فالحسنات توجب مودة الله لهم ، وتبديل السيئات حسنات ليس مختصا بمن كان كافرا ، وقدقال تعالى :

---

(١٦٤) قصة مقابلة ابى سفيان مع هرقل ومحادثته معه اخرجها البخارى فى «صحيحه» فى الايمان(١/٥ـ٧) .

(١٦٥) انظر «الاصابة»(١٧٣/٢)

(١٦٦) سورة الفرقان(٦٨/٢٥ـ٧٠)

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِيْنَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيْبٍ فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيْمًا حَكِيْمًا ﴾[١٦٧]

قال ابوالعالية : سألت أصحاب رسول‌الله ﷺ عن هذه الآية فقالوا لى : كل من عصى‌الله فهو جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب[١٦٨]

الوجه الثانى : ان ماذكر من الفرق بين تائب وتائب فى محبة‌الله تعالى للتائبين فرق لا أصل له ، بل الكتاب والسنة يدل على ان‌الله يحب التوابين ، ويفرح بتوبة التائبين ، سواء كانوا عالمين بأن مأأتوه ذنبًا أو لم‌يكونوا عالمين بذلك .

(مايجب على التائب)

ومن علم ان ماأتاه ذنب ثم تاب فلابد أن‌يُبدّل وصفَه المذموم بالمحمود ، فاذا كان يُبغض الحق فلابد ان‌يُحبّه ، واذا كان يُحبُّ الباطل فلابد ان‌يُبغضه . فما يأتى به التائب من معرفة الحق ومحبته والعمل به ، ومن بغض الباطل واجتنابه هو من الأمور التى يحبها الله تعالى ويرضاها ، ومحبة‌الله كذلك بحسب ما يأتى به العبد من محابّه ، فكل من كان اعظم فعلا لمحبوب الحق كان الحق اعظم محبة له ، وانتقاله من مكروه الحق الى محبوبه مع قوة بغض ماكان عليه من الباطل ، وقوة حب ماانتقل اليه من حب الحق ، فوجب زيادة محبة الحق له ، ومودته

---

(١٦٧) سورة النساء(١٧/٤)

(١٦٨) اخرجه الطبرى فى «تفسيره»(٢٩٨/٤)

اياه ، بل يبدل‌الله سيئاته حسنات لانه بدّل صفاته المذمومةَ بالمحمودة فيُبدّل‌الله سيئاتِه حسنات ، فان الجزاء من جنس العمل ، وحينئذ فاذا كان اتيان التائب بما يحبه الحق اعظم من اتيان غيره كانت محبة الحق له اعظم واذا كان فعله لما يوده‌الله منه اعظم من فعله له قبل التوبة كانت مودة‌الله له بعد التوبة اعظم من مودته له قبل التوبة ، فكيف يقال الود لا يعود .

وبهذا يظهر جواب شبهة من يقول : ان‌الله لايَبعث نبيّا الا من كان معصوما قبل النبوة ، كما يقول ذلك طائفة من الرافضة وغيرهم ، وكذلك من قال انه لايبعث نبيا الا من كان مومنًا قبل النبوة ، فان هؤلاء توهموا ان الذنوب تكون نقصا وان تاب التائب منها ، وهذا منشأ غلطهم فمن ظنّ ان صاحب الذنوب مع التوبة النصوح يكون ناقصا فهو غالط غلطًا عظيما ، فان الذم والعقاب الذى يلحق اهل الذنوب لايلحق التائب منه شيء اصلا ، لكن ان قدّم التوبة لم‌يلحقه شيءٌ ، وان اَخّر التوبةَ فقد يلحقه مابين الذنوب والتوبة من الذم والعقاب مايناسب حاله .

(المبـادرة بالتـوبة)

والانبياء صلوات‌الله عليهم وسلامه كانوا لايؤخرون التوبة ، بل يسارعون اليها ، ويسابقون اليها ، لايُؤخّرون ولايُصرُّون على الذنب بل هم معصومون من ذلك ، ومن أخّر ذلك زمنا قليلا كفّرالله ذلك بما يبتليه به كما فعل بذى النون ﷺ هذا على المشهور ان القاءه كان بعد النبوة ، واما من قال ان القاءه كان قبل النبوة فلا يحتاج الى هذا .

والتائب من الكفر والذنوب قديكون افضل ممن لم‌يقع فى الكفر والذنوب ، واذا كان قديكون افضل ، فالافضل احق بالنبوة ممن ليس

مثله فى الفضيلة ، وقداخبرالله عن اخوة يوسف بما اخبر من ذنوبهم وهم الاسباط الذين نبأهم‌الله تعالى وقدقال تعالى :

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى ﴾[169]

فآمن لوط لابراهيم عليه السلام ثم ارسله الله تعالى الى قوم لوط وقدقال تعالى فى قصة شعيب :

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِيْنَ اَسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِيْنَ ، قَدِاَفْتَرَيْنَا عَلَى‌اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَااللهُ مِنْهَا وَمَايَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيْهَا إِلاَّ أَن يَّشَاءَاللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شِيْءٍ عِلْمًا عَلَى‌اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا اَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَومِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِيْنَ ﴾[170]

وقال تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِيْنَ ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيْدِ ﴾[171]

واذا عرف ان الاعتبار بكمال النهاية ، وهذا الكمال انما يحصل بالتوبة والاستغفار ، ولابد لكل عبد من التوبة وهى واجبة على الأولين والآخرين ، كما قال تعالى :

---

(١٦٩) سورة العنكبوت(٢٦/٢٩)

(١٧٠) سورة الاعراف(٧/٨٨ـ٨٩)

(١٧١) سورة ابراهيم(١٤/١٣ـ١٤)

﴿ لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِيْنَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِيْنَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِيْنَ وَالْمُؤمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُوْرًا رَّحِيْمًا ﴾[172]

(توبة الانبيـــاء)

وقداخبرالله سبحانه بتوبة آدم ونوح ومن بعدهما الى خاتم المرسلين محمد ﷺ ، وآخر مانزل عليه ــاو من آخر مانزل عليهــ قوله تعالى :

﴿ إذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ وَالْفَتْحُ ورَأيْتَ النَّاسَ يدْخُلُونَ فِي دِيْنِ اللهِ أفْوَاجًا ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، انَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾[173]

وفى الصحيحين[174] عن عائشة رضى الله عنها ان النبى ﷺ كان يكثر ان يقول فى ركوعه وسجوده :

« سُبْحَانَكَ اللّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللّهُمَّ اغْفِرْلِى » يتأول القرآن .

وقدانزل الله عليه قبل ذلك :

---

(١٧٢) سورة الاحزاب(٧٣/٣٣)

(١٧٣) سورة النصر(١١٠)

(١٧٤) اخرجه البخارى فى الأذان(١٩٩/١) وفى التفسير(٩٣/٦) ومسلم فى الصلاة(٣٥٠/١رقم٤٨٤) وابوداود فى الصلاة(٥٤٦/١رقم٨٧٧) والنسائى(٢١٩/٢،٢٢٠) وابن ماجة(٢٨٧/١رقم٨٨٩) واحمد فى «المسند»(٤٣/٦،٤٩،١٩٠) .

﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِيْنَ وَالأَنْصَارِ الَّذِيْنَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَاكَادَ يَزِيْغُ قُلُوبُ فَرِيْقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيْمٌ ﴾[١٧٥]

وفى صحيح البخارى[١٧٦] عن النبى ﷺ انه كان يقول :

« ياايها الناسُ تُوبُوا الى ربّكم فوالذى نفسى بيده انّى لأستغفرُاللهَ واتوبُ اليه فى اليوم اكثر من سبعين مرّة » .

وفى صحيح مسلم[١٧٧] عن الاغر المزنى عن النبى ﷺ انه قال :

« انّه لَيُغَانُ على قلبى . وانّى لأستغفرُاللهَ فى اليوم مائة مرّة » .

وفى السنن[١٧٨] عن ابن عمر انه قال : كنا نعُدُّ لرسول الله ﷺ فى المجلس الواحد يقول :

« رَبِّ اغْفِرْلى وتُبْ علىّ انّك انتَ التّوابُ الغفُور » مائة مرّة .

---

(١٧٥) سورة التوبة(١١٧/٩)

(١٧٦) فى الدعوات(١٤٥/٧)

(١٧٧) فى الذكر(٢٠٧٥/٣رقم٤١) وانظر تخريجه فى «شعب الايمان» للبيهقى(الشعبة٤٧)

(١٧٨) اخرجه ابوداود فى الصلاة(١٧٨/٢رقم١٥١٦) والترمذى فى الدعوات(٤٩٤/٥رقم٣٤٣٤) وابن ماجة فى الأدب(١٢٥٣/٢رقم٣٨١٤) والنسائى فى «عمل اليوم والليلة»(رقم٤٥٨) .
واخرجه البخارى فى «الأدب المفرد»(١٦٢رقم٦١٨) وابن حبان فى «صحيحه»(٢٤٥٩)

وفى الصحيحين[١٧٩] عن ابى موسى عن النبى ﷺ انه كان يقول :

« اللّهمّ اغْفِرلى خَطيئتِي وجَهْلِي واسرَافِي فى أمرِى ، وما انتَ اعلم به منى ، اللّهم اغْفِرلِي هَزْلِي وجِدّى وخطئي وعَمَدى وكل ذلك عندى ، اللّهم اغْفِرْلِي ماقَدّمتُ وماأخّرتُ وما أسررتُ وماأعلنْتُ وما انتَ اعلمُ به منّى . انت المُقدّمُ وانت المؤخّرُ ، وانت على كلّ شيء قديرٌ »

وفى الصحيحين[١٨٠] عن ابى‌هريرة انه قال : يارسول‌الله ارايت سكوتَكَ بين التكبير والقراءة ماذا تقول ؟ قال : اقول :

« اللّهم باعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايايَ كما باعَدْتَ بينَ المَشْرِقِ والمغرِبِ ، اللّهمّ نَقِّنِي من خَطَايايَ كما يُنَقّى الثوبُ الأبيضُ من الدّنس ، اللّهم اغْسلنِي مِنْ خطاياى بالثّلْجِ والبَرَدِ والماء البارد » .

وفى صحيح مسلم[١٨١] وغيره انه كان يقول : نحو هذ اذا رفع راسه من الركوع .

---

(١٧٩) احرجه البحارى فى الدعوات(١٦٦/٧) ومسلم فى الدكر(٢٠٨٧/٣رقم٧٠)

(١٨٠) احرجه البحارى فى الأذان(١٨٠/١) ومسلم فى المساجد(٤١٩/١رقم١٤٧)

واحرجه ايضا ابوداود فى الصلاة(٤٩٣/١رقم٧٨١) والنسائى (١٢٩/٢) وابن ماحة(٢٦٤/١رقم٥٠٨) واحمد(٤٩٤/٢)

(١٨١) احرج مسلم(٣٤٦/١ـ٣٤٧رقم٢٠٤) عن عبدالله بن ابى اوفى ان النبى ﷺ كان يقول :

اللهم لك الحمد ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ماشئت من شيء بعد ، اللهم طهّرنى بالثلج والبرد والماء البارد ، اللهم طهّرنى من الذنوب والخطايا كما ينقّى الثوب الأبيض من الوسخ » واحرجه احمد فى «المسند»(٣٥٤/٤)

وفى صحيح مسلم[١٨٢]عن على رضىالله عنه عن النبى ﷺ انه كان يقول فى دعاء الاستفتاح :

« اللهم ! انتَ المَلِكُ لااله إلا انت ، انتَ رَبِّى وانا عبدُكَ ، ظلمتُ نَفْسى وعملتُ سوءا فاغفِرْلِى فانه لايغفِرُ الذُّنوبَ الا انتَ ، واهْدِنى لأحسنِ الأخلاق لايهدى لأحسنها الا انتَ ، واصْرِفْ عنى سَيِّئها لايصرفُ عنِّى سيِّئها الاّ انت » .

وفى صحيح مسلم[١٨٣]عن النبى ﷺ انه كان يقول فى سجوده :

« اللهم ! اغفِرْلِى ذَنبِى كُلَّه دِقَّه وجِلَّه ، علانيتَه وسرّه ، اوّله وآخره » .

وفى السنن[١٨٤]عن على ان النبى ﷺ اتى بدابة ليركبها وانه حمدالله وقال :

﴿ سُبْحانَ الَّذِى سَخَّرَ لنَا هذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِيْنَ وإنَّا الى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾

ثم كبره وحمده ثم قال :

« سُبْحانَكَ ظلمت نفسى فاغْفِرْلِى فانه لايَغْفرُ الذُّنوبَ

---

(١٨٢) راجع التعليق رقم(٤٠)

(١٨٣) فى كتاب الصلاة(٣٥٠/١رقم٢١٦) عن ابى هريرة .

واخرجه ابوداود(٥٤٧/١رقم٨٧٨) .

(١٨٤) اخرجه ابوداود فى الجهاد(٧٧/٣رقم٢٦٠٢) والترمذى فى الدعوات(٥٠١/٥رقم٣٤٤٦) والنسائى فى «عمل اليوم والليلة»(٥٠٢) وابن حبان فى «صحيحه»(٢٣٨٠،٢٣٨١ــموارد) والحاكم فى «المستدرك»(٩٨/٢ـ٩٩) وصححه ، والبيهقى فى «السنن»(٢٥٢/٥) .

الا انتَ ، ثم ضحك ! وقال ان الربَّ يعجبُ من عبده اذا قال اغفِرلى ، فانه لايغفِرُ الذُنوب الا انت ، يقول عَلِمَ عبدِى انه لايغفِرُ الذُنُوب الاَّ انا » .

وقدقال تعالى :

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وِلِلْمُؤمِنِيْنَ وَالْمُومِنَات ﴾[(١٨٥)]

وقال :

﴿ إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِيْنًا ، لِيَغْفِرَ لَكَاللهُ مَاتَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَاتَأَخَّرَ ﴾[(١٨٦)]

وثبت فى الصحيحين[(١٨٧)] فى حديث الشفاعة :

« ان المسيح يقول : اذهبوا إلى محمد عبد غفرالله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر » .

وفى الصحيح[(١٨٨)] :

« ان النبى ﷺ كان يقوم حتى تَرِمَّ قدماه ، فيقال له : اتفعل هذا وقدغفراللهُ لك ماتقدَّم من ذنبك وماتأخر ؟ قال افلا اكون عبدًا شكورا » .

---

(١٨٥) سورة محمد(١٩/٤٧)

(١٨٦) سورة الفتح(٤٨/١ـ٢)

(١٨٧) حاءت هده الحملة فى حديث اس احرحه البحارى فى التوحيد(١٧٣/٨) ومسلم فى الايمان(١٨٠/١رقم١٩٣) واحرحه البيهقى فى «شعب الايمان»(رقم٣٠٣) وراجع تخريجه هناك

(١٨٨) احرحه البحارى فى التفسير من حديث المعيرة وعائشة(٤٤/٦)

ورواه البيهقى فى «شعب الايمان»(الشعبة٣٣)

ونصوص الكتاب والسنة فى هذا الباب كثيرة متظاهرة والاثار فى ذلك عن الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين كثيرة .

(صدور الذنب من الانبياء)

لكن المنازعون يتأولون هذه النصوص من جنس تأويلات الجهمية والباطنية كما فعل ذلك من صنف فى هذا الباب . وتأويلاتهم تبين لمن تدبرها انها فاسدة من باب تحريف الكلم عن مواضعه . كتأويلهم قوله (**ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر**) المتقدم ذنب آدم والمتأخر ذنب امته وهذا معلوم البطلان ويدل على ذلك وجوه :

(احدها) أن آدم قدتاب الله عليه قبل ان ينزل إلى الأرض فضلاً عن عام الحديبية الذى انزل الله فيه هذه السورة قال تعالى :

﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ، ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾[١٨٩]

وقال :

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيْمُ ﴾[١٩٠]

وقدذكر انه قال :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُوْنَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِيْنَ ﴾[١٩١]

---

(١٨٩) سورة طه(٢٠/١٢١ـ١٢٢)

(١٩٠) سورة البقرة(٢/٣٧)

(١٩١) سورة الاعراف(٧/٢٣)

و(الثـانى) ان يقـال : فـآدم عنـدكم من جملـة موارد النزاع ولايحتـاج ان يغفر له ذنبه عند المنازع فانه نبي ايضًا ، ومن قـال : إنـه لم يصـدر من الأنبياء ذنب يقول ذلك عن آدم وَمحمد وغيرهما .

الوجه (الثـالث) ان الله لايجعل الـذنب ذنبًـا لمن لم يفعلـه فـانـه هو القائل :

﴿ لاَتَزِرُ وَازِرَةٌ وِّزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[١٩٢]

فمن الممتنع ان يضاف الى محمد ﷺ ذنب آدم ﷺ أو امته أو غيرهما . وقدقال تعالى :

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَاحُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَاحُمِّلْتُمْ ﴾[١٩٣]

وقال تعالى :

﴿ فَقَاتِلْ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ لاَتُكَلَّفُ إلاَّ نَفْسَكَ ﴾[١٩٤]

ولوجاز هذا الجاز ان يضاف الى محمـد ذنوب الأنبيـاء كلهم ، ويقـال : إن قوله :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَاتَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَاتَأَخَّرَ ﴾[١٩٥]

المراد ذنوب الأنبياء واممهم قبلك ، فـانـه يوم القيـامـة يشفع للخلائق كلهم ، وهو سيد ولد آدم ، وقال :

---

(١٩٢) سورة فاطر(١٨/٣٥)

(١٩٣) سورة النور(٥٤/٢٤)

(١٩٤) سورة النساء(٨٤/٤)

(١٩٥) سورة الفتح(٢/٤٨)

« انا سيد ولد آدم ولافخر وآدم فمن دونه تحت لوائى يــوم القيــامــة ، انــا خطيب الأنبيــاء إذا وفــدوا ، وإمامهم إذا اجتمعوا »[196]

وحينئذٍ فلايختص آدم باضافة ذنبه الى محمد ، بل تجعل ذنوب الأولين والآخرين على قول هؤلاء ذنوبًا لـه . فـان قـال : ان الله لم يعمر ذنـوب جميع الامم ، قيل : وهو ايضًا لم يغفر ذنوب جميع امته .

الوجه (الرابع) انه قدميز بين ذنبه وذنوب المؤمنين بقوله :

﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ﴾[197]

فكيف يكون ذنب المؤمنين ذنبًا له .

---

(١٩٦) لم احده بهدا اللفظ وروى الترمدى عن انس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ

انا اول الناس حروجًا ادا بعثوا ، وانا حطيبهم ادا وفـدوا ، وانـا مبشرهم ادا ايسوا ، لواء الحمد يومئذ بيدى ، وانا اكرم ولد ادم على ربى ولافحر

وقال ابوعيسى هدا حديث حسن عريب(٥/٥٨٥رقم٣٦١٠)

واحرحــه البيهقى فى «الــدلائــل»(٥/٤٨٤) ودكره الالبــانى فى «صعيف الجــامــع الصعير»(١٤٠٦) وروى الترمـدى عن ابى سعيـد(٥/٥٨٧رقم٣٦١٥) قـال قــال رسـول الله ﷺ

«اناسيِّد ولد ادم يوم القيامـة ، وبيـدى لواء الحمـد ولافحر ، ومـا من نبى يومئـد ادم فمن سواه الا تحت لوائى وانا اول من تنشق عنه الارض ولافحر»

واحرحه احمد(٣/٢) وابن ماحه(٢/١٤٤٠رقم٤٣٠٨) وراجع «الصحيحة»(١٥٧١)

واحرح الترمدى ايصًا(٥/٥٨٦رقم٣٦١٣) عن ابى بن كعب قال قال رسول الله ﷺ

«ادا كان يوم القيامة كنت امام النبيين وحطيبهم ، وصاحب شفاعتهم ولافحر»

ورواه احمد(٥/١٣٧،١٣٨) وابن ماحه(٢/١٤٤٣رقم٤٣١٤) والحاكم(٢/٧١/٤٠٧٨)

(١٩٧) سورة محمد(٤٧/١٩)

الوجه (الخامس) انه ثبت فى الصحيح[١٩٨] ان هذه الآية لمانزلت قال الصحابة يارسول‌الله ! هذا لك فما لنا فأنزل الله :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾[١٩٩]

فدل ذلك على ان الرسول والمؤمنين علموا ان قوله ﴿ **ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر** ﴾ مختص به دون امته .

الوجه (السادس) ان الله لم‌يغفر ذنوب جميع امته بل قدثبت ان من امته من يعاقب بذنوبه اما فى الدنيا واما فى الآخرة ، وهذا مما تواتر به النقل واخبر به الصادق المصدوق واتفق عليه سلف الامة وائمتها ، وشوهد فى الدنيا من ذلك مالايحصيه الا الله ، وقدقال الله تعالى :

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ، مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[٢٠٠]

والاستغفار والتوبة قديكونان من ترك الافضل . فمن نقل الى حال افضل مما كان عليه قديتوب من الحال الاول ؛ لكن الذم والوعيد لايكون الا على ذنب .

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

---

(١٩٨) اخرجه البخارى فى المغازى(٦٦/٥) ومسلم باختصار فى الجهاد(١٤١٣/٢رقم٩٧) واخرجه الترمذى(٣٨٥/٥ـ٣٨٦رقم٣٢٦٣) واحمد(١٢٢/٣،١٣٤،١٧٣،١٩٧،٢١٥،٢٥٢) وابو يعلى فى «مسنده»(٣٠٨/٥رقم٢٩٣٢؛٣٨٥رقم٣٠٤٥،٤٧٢رقم٣٢٠٤؛٢١/٦رقم٣٢٥٢) والطبرى فى «تفسيره»(٦٩/٢٦) والواحدى فى «اسباب النزول»(٤٠٤ـ٤٠٥) والبيهقى فى «السنن»(٢٢٢/٩) .

(١٩٩) سورة الفتح(٤/٤٨)

(٢٠٠) سورة النساء(١٢٣/٤)

فصـــــل
(لابد للمغفرة من التوبة)

وأما قول السائل : هل الاعتراف بالخطيئة بمجرده مع التوحيد موجب لغفرانها وكشف الكربة الصادرة عنها ، أم يحتاج الى شيء آخر ؟ .

فجوابه : ان الموجب للغفران مع التوحيد هو التوبة المأمور بها ، فان الشرك لايغفره الله الا بتوبة ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُوْنَ ذٰلِكَ لِمَن يَّشَاءُ ﴾[1]

فى موضعين من القرآن ومادون الشرك فهو مع التوبة مغفور ، وبدون التوبة معلق بالمشيئة . كما قال تعالى :

﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِيْنَ اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيْعًا ﴾[2]

---

(١) سورة النساء(٤/٤٨،١١٦)

(٢) سورة الزمر(٣٩/٥٣)

فهذا فى حق التائبين ، ولهذا عمم واطلق ، وحتم انه يغفر الذنوب جميعا ، وقال فى تلك الآية : ﴿ ويَغْفِرُ مَادُوْنَ ذَلكَ لِمَن يَّشاءُ ﴾ فخص مادون الشرك وعلقه بالمشيئة فاذا كان الشرك لايغفر الا بتوبة ، وأما مادونه فيغفره الله للتائب ، وقد يغفره بدون التوبة لمن يشاء .

فالاعتراف بالخطيئة مع التوحيد ان كان متضمنا للتوبة أوجب المغفرة ، واذا غفر الذنب زالت عقوبته ، فان المغفرة هى وقاية شر الذنب .

ومن الناس من يقول الغَفْرُ : الستر ، ويقول : انما سمى المغفرة والغفار لما فيه من معنى الستر ، وتفسير اسم الله الغفّار بانه الستار ، وهذا تقصير فى معنى الغفر ، فان المغفرة معناها وقاية شر الذنب بحيث لايعاقب على الذنب فمن غُفِرَ ذنبه لم يعاقب عليه ، واما مجرد ستره فقد يعاقب عليه فى الباطن ، ومن عُوقب على الذنب باطنا او ظاهرا فلم يغفر له ، وانما يكون غفران الذنب اذا لم يعاقب عليه العقوبة المستحقة بالذنب .

وأما اذا ابتلى مع ذلك بما يكون سببا فى حقه لزيادة اجره فهذا لاينافى المغفرة .

وكذلك اذا كان من تمام التوبة ان ياتى بحسنات يفعلها ، فان مايشرط فى التوبة من تمام التوبة ، وقد يظن الظان انه تائب ولايكون تائبا بل يكون تاركا ، والتارك غير التائب ، فانه قد يُعرض عن الذنب لعدم خطوره بباله او المقتضى لعجزه عنه ، او تنتفى ارادته له بسبب غير دينى ، وهذا ليس بتوبة . بل لابد من ان يعتقد انه سيئة ويكره فعله لنهى الله عنه ويدعه لله تعالى ، لالرغبة لمخلوق ولالرهبة مخلوق ، فان التوبة من اعظم الحسنات ، والحسنات كلها يُشترط فيها الاخلاص لله وموافقة امره ، كما قال الفضيل بن عياض[٣] فى قوله :

---

(٣) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التيمى(م١٨٧هـ)

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ احْسَنُ عَمَلاً ﴾[٤]

قال اخلصه واصوبه ، قالوا ياابا على ! مااخلصه واصوبه ؟ قال : انّ العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا . والخالص ان يكون لله ، والصواب ان يكون على السنة .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول فى دعائه : اللهم اجعل عملى كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصا ، ولاتجعل لأحد فيه شيئا .

وبسط الكلام فى التوبة له موضع آخر .

(الاعتراف فقط لايكفى)

وأما الاعتراف بالذنب على وجه الخضوع لله من غير إقلاع عنه فهذا فى نفس الاستغفار المجرد الذى لاتوبة معه ، وهو كالذى يسأل الله تعالى ان يغفر له الذنب مع كونه لم يتب منه ، وهذا يأسٌ من رحمة الله ، ولا يقطع بالمغفرة له فانه داع دعوة مجردةً ، وقدثبت فى الصحيحين[٥] عن النبى ﷺ انه قال :

« ما من داع يدعو بدعوةٍ ليس فيها اثمٌ ولاقطيعةُ

= من كبار الزهاد ومشايخ الصوفية

له ترجمته فى «طبقات الصوفية»(٤ـ١١) «الحلية»(٨٤/٨ـ١٤٠) و«السير»(٤٢١/٨ـ٤٤٢)

وانظر قوله فى «الحلية»(٩٥/٨) .

(٤) سورة الملك(٢/٦٧)

(٥) لم يخرجاه بهذا اللفظ بل عندهما من حديث ابى هريرة «يستجاب لاحدكم مالم يعجل ، يقول دعوت فلم يستجب لى» (البخارى فى الدعوات١٥١/٧؛ ومسلم فى =

رحمٍ الا كان بينَ احـدى ثـلاث : امـا ان يُعَجِّـلَ لـه دعوتـه ، وامـا ان يُـدخِّر لـه من الجزاء مثلهـا ، وامـا ان يصرف عنه من الشرّ مثلها ، قـالوا يـارسول‌الله اذًا نُكثر . قال : الله اكثر » .

فمثل هذا الدعاء قدتحصل معـه المغفرة واذا لم تحصل ، فلابـد ان يحصل معه صرف شر آخر او حصول خير آخر ، فهو نافع كما ينفع كل دعاء .

وقول من قال من العلماء الاستغفار مع الاصرار توبةُ الكذّابين ، فهـذا اذا كان المستغفر يقوله على وجه التوبـة او يـدّعى ان استغفـاره توبـة ، وانه تائب بهذا الاستغفار فلاريب انـه مع الاصرار لا يكون تـائبـا ، فـان التوبة والاصرار ضدان : الاصرار يضاد التوبة ، لكن لا يضـاد الاستغفـار

= الذكر ۲۰۹۵/۳رقم ۹۰ـ۹۱) وفى لفظ عند مسلم(رقم۹۲) «لايزال يستجاب للعبد مالم يدع باثم ولاقطيعة رحم مالم يستعجل . قيل يارسول‌الله مـاالاستعجـال ؟ قـال : يقول : دعوت ودعوت فلم ار يستجيب لى ، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء»

نعم روى الترمذى فى الدعوات من «جامعه»(٥٦٦/٥رقم٣٥٧٣) عن عبادة بن الصـامت ان رسول‌الله ﷺ قال : «ما على الارض مسلم يدعو الله بدعوة الا اتاه الله اياهـا أو صرف عنه من السـوء مثلهـا مـالم يـدع بـاثم أو قطيعـة رحم» فقـال رجل من القوم اذًا نكثر . قال : «الله اكثر» .

واخرج احمد فى «المسند»(۱۸/۳) عن ابى‌سعيـد الخـدرى رضى‌الله‌عنـه قـال قـال رسول‌الله ﷺ :

«ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها اثم ولاقطيعة رحم الا اعطاه‌الله بها احـدى ثلاث اما ان تعجّل له دعوته ، واما ان يدخرها له فى الآخرة ، وامـا ان يصرف عنـه من السوء مثلها» . قالوا : اذًا نُكثر . قال : «الله اكثر» .

واخرجه ابو يعلى فى «مسنده»(۲۹٦/۲رقم۱۰۱۹) والحاكم(٤٩٣/١) وصححه ووافقه الـذهبى . وذكره الهيثمى فى «مجمع الـزوائـد»(۱٤٨/۱۰ـ۱٤۹) وقــال : رواه احـمـد وابـو يعلى والبزار والطبرانى فى «الاوسـط» . ورجــال احـمـد وابى‌يعلى واحــد اسنــادى البزار رجــالــه رجال‌الصحيح غير على بن على الرفاعى وهو ثقة .

وراجع «فتح البارى»(۹٥/۱۱ـ۹٦) .

بدون التوبة .

وقول القائل : هل الاعتراف بالذنب المعين يوجب دفع ماحصل بذنوب متعددة ام لابد من استحضار جميع الذنوب ؟

فجواب هذا مبنى على اصول :

(احدها) ان التوبة تصحُّ من ذنب مع الاصرار على ذنب آخر اذا كان المقتضى للتوبة من احدهما اقوى من المقتضى للتوبة من الآخر ، او كان المانع من احدهما اشدّ ، وهذا هو القول المعروف عند السلف والخلف .

وذهب طائفة من اهل الكلام كأبى هاشم[٦] الى انّ التوبة لاتصحُّ من قبيح مع الاصرار على الآخر ، قالوا : لأن الباعث على التوبة ان لم يكن من خشيةالله لم يكن توبة صحيحة ، والخشية مانعة من جميع الذنوب لامن بعضها ، وحكى القاضى ابو يعلى[٧] وابن عقيل[٨] هذا رواية عن احمد ،

---

(٦) ابوهاشم ، عبدالسلام بن محمد بن عبدالوهاب الجبّائى(م٣٢١هـ)

عالم بالكلام ، من كبار المعتزلة . له آراء انفرد بها . وتبعته فرقة سميت «البهشمية» وله مصنفات .

راجع «تاريخ بغداد»(٥٥/١١) «وفيات الاعيان»(١٨٣/٣) «البداية والنهاية»(١٧٦/١١) «ميزان الاعتدال»(١٣١/٢) «الفرق بين الفرق»(١٦٩) .

(٧) القاضى ابو يعلى ، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن احمد البغدادى ، الحنبلى(م٤٥٨هـ)

الامام العلامة ، شيخ الحنابلة ، صاحب التصانيف المفيدة فى المذهب .انتهت اليه الامامة فى الفقه ، وكان عالم العراق فى زمانه مع معرفة لعلوم القرآن وتفسيره .

له ترجمة فى «تاريخ بغداد»(٢٥٦/٢) «طبقات الحنابلة»(١٩٣/٢-٢٣٠) «السير»(٨٩/١٨-٩٠) «الوافى»(٧/٣-٨) «البداية والنهاية»(٩٤/١٢-٩٥) «شذرات الذهب»(٣٠٦/٣-٣٠٧) .

(٨) ابن عقيل ، ابو الوفاء على بن عقيل بن محمد بن عقيل بن عبدالله البغدادى(م٥١٣هـ)

الامام العلامة ، الحنبلى المتكلم ، صاحب التصانيف . كانه يتوقد ذكاء ، وكان بحر معارف وكنز فضائل ، لم يكن له نظر فى زمنه . =

لأن المروذى[9] نقل عنه انه سئل عمن تاب من الفاحشة وقال : لومرضتُ لم اعُدْ لكن لايدع النظر ، فقال احمد : اى توبة ذه ؟ قال جرير بن عبدالله سألت رسول‌الله ﷺ عن نظرة الفجأة فقال :

« اصرِفْ بصرَكَ »[10]

والمعروف عن احمد وسائر الائمة هو القول بصحة التوبة ، واحمد فى هذه المسألة انما اراد ان هذه ليست توبة عامة يحصل بسببها من التائبين توبة مطلقا ، لم‌يرد ان ذنب هذا كذنب المصر على الكبائر ، فان نصوصه المتواترة عنه واقواله الثابتة تنافى ذلك ، وحمل كلام الامام على مايصدق بعضه بعضا اولى من حمله على التناقض ، لاسيا اذا كان القول الآخر

= قال ابن الاثير : كان قداشتغل بمذهب المعتزلة فى حداثته على بن الوليد ، فاراد الحنابلة قتله ، فاستجار بباب المراتب عدة سنين ثم اظهر التوبة .

له ترجمة فى «طبقات الحنابلة»(٢٥٩/٢) «الكامل» فى التاريخ(٥٦١/١٠) «السير»(٤٤٣/١٩ـ٤٥١) «الميزان»(١٤٦/٣) «لسان الميزان»(٢٤٣/٤ـ٢٤٤) «ذيل طبقات الحنابلة»(١٤٢/١ـ١٦٥) .

(٩) المرّوذى = نسبة الى مَرْوَ الرُّوْذ ، بلدة حسنة مبنية على وادى مرو . والوادى بالعجمية «رود» فركبوا عن اسم البلد الذى ماؤه فى هذا الوادى والبلد اسما وقالوا «مرو الروذ» والنسبة اليها «المرو الروذى» ويقال «المرُّوذى» للتخفيف .

وهو ابوبكر احمد بن محمد الحجاج بن عبدالعزيز(م٢٧٥هـ)

صاحب الامام احمد ، والمقدم من اصحابه لورعه وفضله . وكانت امه مرّوذية وابوه خوارزميا . روى عن الامام مسائل كثيرة .

ترجمته فى «تاريخ بغداد»(٤٢٣/٤ـ٤٢٥) «الأنساب»(٢٠١/١٢ـ٢٠٢) «طبقات الحنابلة»(٥٦/١ـ٦٣) «التذكرة»(٦٣١/٢ـ٦٣٣) «السير»(١٧٣/١٣ـ١٧٦) «الوافى»(٣٩٣/٧) «شذرات»(١٦٦/٢) .

(١٠) رواه ابوداود فى النكاح(٦٠٩/٢رقم٢١٤٨) واحمد فى «المسند»(٣٦١/٤)

واخرجه مسلم فى الأدب(١٦٩٩/٢رقم٤٥) والترمذى فى الآداب(١٠١/٥رقم٢٧٧٦)

واحمد فى «المسند»(٣٥٨/٤) بلفظ «فامرنى ان‌اصرف بصرى» .

مبتدعا لم يعرف عن احـد من السلف ، واحمـد يقول : إيـاك ان تتكلم فى مسألة ليس لك فيها امام ، وكان فى المحنـة يقول :كيف أقول مـالم يُقل ؟ واتباع احمد للسنـة والآثـار وقوة رغبتـه فى ذلـك ، وكراهتـه لخلافـه من الامور المتواترة عنه يعرفها من يعرف حاله من الخاصة والعامة .

وماذكروه من ان الخشية توجب العموم .

فجوابه انه قد يعلم قبح أحد الذنبين دون الآخر ، وانما يتوب مما يعلم قبحه .

و(ايضـا) فقـد يعلم قبحهـا ولكن هواه يغلبـه فى احـدهمـا دون الآخر فيتوب من هذا دون ذاك ، كمن ادى بعض الواجبـات دون بعض ، فـان ذلك يقبل منه .

ولكن المعتزلـة لهم اصـل فـاسـد وافقـوا فيــه الخـوارج فى الحكم وان خـالفـوهم فى الاسم ، فقـالـوا : ان اصحـاب الكبـائر يُخلّـدون فى النــار ولا يخرجون منها بشفاعة ولاغيرها ، وعندهم يمتنع ان يكون الرجل الواحد ممن يعـاقبـه الله ثم يثيبــه ، ولهــذا يقـولـون : بحبـوط جميـع الحسنــات بالكبيرة .

واما الصحابة واهل السنة والجماعة فعلى ان اهل الكبـائر يخرجون من النار ويشفع فيهم ، وان الكبيرة الواحدة لاتُحبط جميعَ الحسنات ، ولكن قد يُحبط ما يقابلهـا عنـد اكثر اهل السنـة ، ولايحبـط جميع الحسنـات الا الكفر ، كما لايحبـط جميع السيئـات الا التوبـة ، فصـاحب الكبيرة اذا أتى بحسنات يبتغى بها رضاالله أثابه الله على ذلك ، وان كان مستحقا للعقوبة على كبيرته .

وكتـاب الله عزوجـل يفرق بين حكم الســارق والـزانى وقتـال المـؤمنين بعضهم بعضـا ، وبين حكم الكفـار فى الاسماء والأحكام ، والسنـة المتـواترة عن النبى ﷺ واجماع الصحـابـة يـدل على ذلـك ، كما هو مبسوط فى غير هذا الموضع .

وعلى هذا تنازع الناس فى قوله :

﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾[11]

فعلى قول الخوارج والمعتزلة لاتقبل حسنة الا ممن اتقاه مطلقا فلم يأت كبيرة ، وعند المرجئة انما يتقبل ممن اتقى الشرك ، فجعلوا اهل الكبائر داخلين فى اسم «المتقين» ، وعند اهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعمله خالصًا لله موافقًا لأمرالله ، فمن اتقاه فى عمل تقبّله منه ، وان كان عاصيا فى غيره ، ومن لم يَتَّقه فيه لم يتقبله منه وان كان مطيعا فى غيره .

(التوبة من بعض الذنوب دون بعض تصحّ)

والتوبة من بعض الذنوب دون بعض كفعل بعض الحسنات المأمور بها دون بعض اذا لم يكن المتروك شرطا فى صحة المفعول كالايمان المشروط فى غيره من الاعمال ، كما قال الله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴾[12]

وقال تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾[13]

---

(١١) سورة المائدة(٥/٢٧)

(١٢) سورة الاسراء(١٧/١٩)

(١٣) سورة النمل(١٦/٩٧) وفى الاصل «ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى...»

وقال :

﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون ﴾[١٤]

(هل الكافر يحتاج الى توبة؟)

(الاصل الثانى) ان من له ذنوب فتاب من بعضها دون بعض فان التوبة انما تقتضى مغفرة ماتاب منه ، أما مالم يَتُب منه فهو باقٍ فيه على حكم من لم يتب ، ولاعلى حكم من تاب ، وماعلمت فى هذا نزاعا الا فى الكافر اذا اسلم ، فان اسلامه يتضمن التوبة من الكفر فيغفر له بالاسلام الكفر الذى تاب منه ، وهل تُغفَرُ له الذنوب التى فعلها فى حال الكفر ولم يتب منها فى الاسلام ؟ هذا فيه قولان معروفان .

(احدهما) يغفر له الجميع ، لاطلاق قوله ﷺ :

« **الاسلام يهدم ماكان قبله** » رواه مسلم[١٥]

مع قوله تعالى :

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْسَلَفَ ﴾[١٦]

---

(١٤) سورة البقرة(٢١٧/٢)

(١٥) فى الايمان من «صحيحه»(١١٢/١ رقم١٩٢)

(١٦) سورة الانفال(٣٨/٨)

(والقول الثانى) انه لايستحق ان يغفر له بالاسلام الا ماتاب منه . فاذا اسلم وهو مصر على كبائر دون الكفر فحكمه فى ذلك حكم امثاله من اهل الكبائر ، وهذا القول هو الذى تدل عليه الاصول والنصوص . فان الصحيحين[١٧]ان النبي ﷺ قال له حكيم بن حزام يارسول‌الله ! أنؤاخذ بما عَملنا فى الجاهلية ؟ فقال :

« من أحْسَنَ منكم فى الاسلام لم يُؤاخذْ بما عملَ فى الجاهلية ، ومن أساء فى الاسلام أخِذَ بالاول والآخر » .

فقد دل هذا النص على انه انما ترفع المؤاخذة بالاعمال التى فعلت فى حال الجاهلية عمن احسن لاعمن لايحسن ، وان لم يحسن اخذ بالاول والآخر ، ومن لم يتب منها فلم يحسن .

وقوله تعالى :

﴿ قُل لِلَّذِيْنَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾[١٨]

يدل على ان المنتهى عن شيء يغفر له ماقد سلف منه ، لايدل على ان المنتهى عن شيئ يغفر له ماسلف من غيره ؛ وذلك لان قول القائل لغيره : ان انتهيت غفرت لك ماتقدم ، ونحو ذلك يفهم منه عند الاطلاق انك ان انتهيت عن هذا الامر غفر لك ماتقدم منه ، وإذا انتهيت عن شيئ غفر لك ماتقدم منه ، كما يفهم مثل ذلك فى قوله : « ان تبت » ، لايفهم منه انك بالانتهاء عن ذنب يغفر لك ماتقدم من غيره .

---

(١٧) رواه البخارى فى استتابة المرتدين(٤٩/٨) ومسلم فى الايمان(١١١/١رقم١٩٠) واخرجه البيهقى فى «شعب الايمان»(رقم٢٣) وانظر تخريجه هناك .

(١٨) سورة الانفال(٣٨/٨)

واما قول النبي ﷺ : « الاسلام يهدم ماقبله » وفي رواية « يَجُبُّ ماكان قبله » فهذا قاله لما اسلم عمرو بن العاص وطلب ان يغفر له ماتقدم من ذنبه فقال له :

« ياعمرو اما علمت ان الاسلام يهدم ماكان قبله ، وان التوبة تهدم ماكان قبلها ، وان الهجرة تهدم ماكان قبلها »[١٩]

ومعلوم ان التوبة انما توجب مغفرة ماتاب منه ، لاتوجب التوبة غفران جميع الذنوب .

(التوبة المطلقة)

(الاصل الثالث) ان الانسان قد يستحضر ذنوبًا فيتوب منها وقد يتوب توبة مطلقة لا يستحضر معها ذنوبه ، لكن اذا كانت نيته التوبة العامة فهى تتناول كل مايراه ذنبًا ؛ لأن التوبة العامة تتضمن عزمًا عامًا بفعل المأمور وترك المحظور ، وكذلك تتضمن ندمًا عامًا على كل محظور .

و« الندم » سواء قيل : انه من باب الاعتقادات ، أو من باب الارادات ، أو قيل : انه من باب الآلام التى تلحق النفس بسبب فعل مايضرها ؛ فاذا استشعر القلب انه فعل مايضره ، حصل له معرفة بان الذى فعله كان من السيئات ، وهذا من باب الاعتقادات ، وكراهية لماكان فعله ، وهو من جنس الارادات ؛ وحصل له أذى وغم لماكان فعله ؛ وهذا من باب الآلام ، كالغموم والاحزان ، كما ان الفرح والسرور هو من باب اللذات ليس هو من باب الاعتقادات والارادات .

---

(١٩) راجع «مسلم»(١١٢/١رقم١٩٢)

ومن قال من المتفلسفة ومن اتبعهم : إن اللـذة هى ادراك الملائم من حيث هو مـلائم ، وان الألم هـو ادراك المنـافر من حيث هـو منـافر فقـد غلط فى ذلك . فان اللذة والألم حالان يتعقبان إدراك الملائم والمنافر فـان الحب لمايلائمه ، كالطعام المشتهى مثلا له ثلاثة احوال :

(احدها) الحب ، كالشهوة للطعام .

و(الثانى) ادراك المحبوب ، كأكل الطعام .

و(الثالث) اللذة الحاصلة بذلك ، واللـذة أمر مغـاير للشهوة ولـذوق المشتهى ؛ بل هى حاصلة لذوق المشتهى ؛ ليست نفس ذوق المشتهى .

وكـذلـك « المكروه » كالضرب مثلا . فـان كراهتـه شيئ ، وحصولـه شيئ آخر ، والألم الحاصل به ثالث .

وكذلك ماللعـارفين اهل محبـةالله من النعيم والسرور بـذلـك ؛ فـان حبهم لله شيئ ، ثم مـايحصل من ذكر المحبـوب شيئ ، ثم اللـذة الحـاصلـة بـذلـك امر ثـالث ، ولاريب ان الحب مشروط بشعـورالمحبـوب ، كماان الشهـوة مشروطـة بشعـور المشتهى ؛ لكن الشعـور المشروط فى اللـذة غير الشعور المشروط فى المحبة ، فهذا الثانى يسمى إدراكًا وذوقًـا ونيلاً ووجـدًا ووصالاً ، ونحو ذلك ممايعبر بـه عن ادراك المحبوب ، سواء كان بـالبـاطن أو الظاهر ، ثم هذا الذوق يستلزم اللذة ، واللذة امر يحسـه الحى بـاطنًـا وظاهرًا .

وقدقال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح[٢٠] :

« ذَاقَ طَعمَ الايمـانِ مَن رَضِىَ بـاللهِ رَبًّـا ، وبـالاسـلامِ دينًا ، وبمُحَمَّد ﷺ نبيًا »

---

(٢٠) اخرجه مسلم فى الايمان(٦٢/١) وراجع «شعب الايمان» للبيهقى(رقم١٩٥) لتخريجه .

وفى الصحيحين[21] عنه ﷺ انه قال :

« ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ بِهِنَّ حلاوةَ الايمانِ : مَن كَانَ اللهُ وَرَسُوْلُهُ أحبَّ اليه مِن سواهما ، ومَن كان يُحبُّ المرءَ لايُحبُّهُ إلا لله ، ومَن كان يَكرهُ أن يَرجعَ فى الكُفر بعد اذ أنْقَذَهُ اللهُ منه كمايَكره ان يُلقى فى النار »

فبين ﷺ ان ذوق طعم الايمان لمن رضى بالله ربا ، وبالاسلام دينًا ، وبمحمد نبيًا ، وانَّ وجدَ حلاوةالايمان حاصل لمن كان حبُّه لله ورسوله اشد من حبه لغيرهما ، ومن كان يُحبُّ شخصًا لله لالغيره ، ومن كان يكره ضدّ الايمان ، كما يكره ان يلقى فى النار ، فهذا الحب للايمان ، والكراهية للكفر استلزم حلاوة الايمان ، كما استلزم الرضى المتقدم ذوق طعم الايمان ، وهذا هو اللذة ، وليس هو نفس التصديق والمعرفة الحاصلة فى القلب ، ولانفس الحب الحاصل فى القلب ، بل هذا نتيجة ذاك وثمرته ولازم له ، وهى أمور متلازمة ، فلاتوجد اللذة الا بحب وذوق ، وإلا فمن أحب شيئا ولميذق منه شيئا لميجد لذة ، كالذى يشتهى الطعام ولم يذق منه شيئا ، ولو ذاق مالا يحبه لميجد لذة ، كمن ذاق مالا يريده ، فاذا اجتمع حب الشيء وذوقه حصلت اللذة بعد ذلك .

وان حصل بغضه وذوق البغيض حصل الألم ، فالذى يُبغض الذنب ولا يفعله لايندم ، والذى لايُبغضه لايندم على فعله ، فاذا فعله وعرف ان هذا مما يبغضه ويضُرُّه ندم على فعله اياه ، وفى المسند عن ابن مسعود عن النبى ﷺ انه قال :

---

(٢١) اخرجه البخارى فى الاكراه(٥٦/٨) ومسلم فى الايمان(٦٦/١رقم٦٧ـ٦٨)

واخرجه البيهقى فى «شعب الايمان»(حديث رقم٤٠١) وانظر تخريجه فيه .

« الندمُ توبةٌ »[٢٢].

(التـــوبة العـــامة)

اذا تبيّن هذا ، فمن تاب توبة عامة كانت هذه التوبة مقتضية لغفران الذنوب كلها ، وان لم يستحضر أعيان الذنوب الا ان يعارض هذا العام معارض يوجب التخصيص ، مثل ان يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه ، لقوة ارادته اياه أو لاعتقاده انه حسن ليس بقبيح ، فما كان لواستحضره لم يتب منه لم يدخل فى التوبة ، وأما ماكان لوحضر بعينه لكان مما يتوب منه فان التوبة العامة شاملته .

وأما «التوبة المطلقة» وهى ان يتوب توبةً مجملة ، ولاتستلزم التوبة من كل ذنب ، فهذه لاتُوجب دخول كل فرد من أفراد الذنوب فيها ولاتمنع دخوله كاللفظ المطلق ، لكن هذه تصلح ان تكون سببا لغفران المعين ، كما تصلح ان تكون سببا لغفران الجميع ، بخلاف العامة فانها مقتضية للغفران العام ، كما تناولت الذنوب تناولا عاما .

وكثير من الناس لايستحضر عند التوبة الا بعض المتصفات بالفاحشة أو مقدماتها او بعض الظلم باللسان او اليد ، وقد يكون ماتركه من المأمور الذى يجب لله عليه فى باطنه وظاهره من شعب الايمان وحقائقه اعظم ضررا عليه مما فعله من بعض الفواحش ، فانّ ماأمرالله به من

---

(٢٢) اخرجه احمد فى «المسند»(١/٣٧٦،٤٢٣،٤٣٣) والحاكم(٤/٢٤٣)
واخرجه البيهقى فى «شعب الايمان» فى باب التوبة وهى الشعبة السابعة والاربعون .
وراجع تخريج الحديث فيه .

حقائق الايمان التى بها يصير العبد من المؤمنين حقا ، اعظم نفعا من نفع ترك بعض الذنوب الظاهرة ، كحبّ الله ورسوله ، فان هذا اعظم الحسنات الفعلية حتى ثبت فى الصحيح[٢٣] : انه كان على عهد النبى ﷺ رجل يُدعى حمارًا ، وكان يشربُ الخمرَ ، وكان كلما أُتى به الى النبى ﷺ جَلدَه الحدَّ ، فلما كثُر ذلك منه أُتى به مرَّة فأمر بجَلده فلعنه رجل فقال النبى ﷺ :

« لاتَلْعَنْه فانه يُحِبُّ اللهَ ورسوله » .

فنهى عن لعنه مع اصرار على الشرب لكونه يحبالله ورسوله ، مع انه ﷺ لعن فى الخمر عشرة :

« لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربَها وساقيَها وحاملها والمحمولة اليه ، وبائعها ومبتاعَها وآكل ثمنها »[٢٤]

ولكن لعن المطلق لايستلزم لعن المعين الذى قام به مايمنع لحوف اللعنة له .

وكذلك «التكفير المطلق» و «الوعيد المطلق» ولهذا كان الوعيد المطلق فى الكتاب والسنة مشروطا بثبوت شروط وانتفاء موانع ، فلايلحق التائب من الذنب باتفاق المسلمين ، ولايلحق من له حسنات تمحوا سيئاته ، ولايلحق المشفوع له ، والمغفور له ، فان الذنوب تزول عقوبتها التى هى جهنم بأسباب التوبة والحسنات الماحية والمصائب المكفرة

---

(٢٣) رواه البحارى فى الحدود من «صحيحه»(١٤/٨)

(٢٤) واخرجه ابوداود(٨١/٤ـ٨٢رقم٣٦٧٤) وابن ماجه(١١٢١/٢رقم٣٣٨٠) والحاكم فى «المستدرك»(٣٢/٢) .

ــلكنها من عقوبات الدنياــ وكذلك مايحصل فى البرزخ من الشدة ، وكذلك مايحصل فى عرصات القيامة ، وتزول ايضا بدعاء المؤمنين : كالصلاة عليه وشفاعة الشفيع المطاع ، كمن يشفع فيه سيِّد الشفعاء محمد ﷺ تسليما .

وحينئذ فأىّ ذنب تاب منه ارتفع موجبُه ، ومالم يتب منه فله حكم الذنوب التى لم يتب منها ، فالشدة اذا حصلت بذنوب وتاب من بعضها خفف منه بقدر ماتاب منه ، بخلاف مالم يتب منه ، بخلاف صاحب التوبة العامة .

والناس فى غالب احوالهم لايتوبون توبة عامة مع حاجتهم الى ذلك ، فان التوبة واجبة على كل عبد فى كل حال ، لانه دائما يظهر له ما فرّط فيه من ترك مأمور ، او ماعتدى فيه من فعل محظور ، فعليه ان يتوب دائما ، والله اعلم .

واما قول السائل : ماالسبب فى ان الفرجَ يأتى عند انقطاع الرجاء عن الخلق ؟ ومالحيلة فى صرف القلب عن التعلق بهم وتعلقه بالله ؟

فيقال : سبب هذا تحقيق التوحيد : «توحيد الربوبية» و«توحيد الالهية» .

«فتوحيد الربوبية» انه لاخالق الاالله ، فلايستقل شيء سواه باحداث أمر من الأمور ، بل ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، فكل ماسواه اذا قدر سببا فلابد له من شريك معاون وضد معوق ، فاذا طلب مما سواه إحداث أمر من الأمور طلب منه مالايستقل به ولايقدر وحده عليه ، حتى مايطلب من العبد من الافعال الاختيارية لايفعلها الا باعانةالله له ، كأن يجعله فاعلا لها بما يخلقه فيه من الارادة الجازمة ويخلقه له من القدرة التامة ، وعند وجود القدرة التامة والارادة الجازمة يجب وجود

المقدور .

فمشيئةالله وحده مستلزمةٌ لكل مايريده ، فماشاءالله كان ومالم يشأ لم يكن ، وماسواه لاتستلزم إرادته شيئا ، بل ماأراده لايكون إلا بأمور خارجة عن مقدوره ان لم يُعِنْه الربُّ بها لم يحصل مراده ، ونفس ارادته لاتحصل الا بمشيئةالله تعالى ، كما قال تعالى :

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنكُمْ أن يَّسْتَقِيْمَ ، وَمَا تَشَاءُوْنَ إلاَّ أن يَّشَاءَ الله رَبُّ الْعَالَمِيْنَ ﴾[٢٥]

وقال تعالى :

﴿ فَمَنْ شَاء اتَّخَذَ الى رَبِّه سَبيلا وَمَاتَشَاْوْنَ إلاَّ أن يَّشَاءَاللهُ إنَّاللهَ كَانَ عَلِيْمًا حَكِيْمًا ، يُدْخِلُ مَن يَّشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِيْنَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيْمَا ﴾[٢٦]

وقال :

﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ، وَمَايَذْكُرُونَ إلاَّ أَنْ يَشَاءَاللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾[٢٧] .

والراجى لمخلوقٍ طالبٌ بقلبه لما يريده من ذلك المخلوق ، وذلك المخلوق عاجز عنه ، ثم هذا من الشرك الذى لايغفرهالله ، فمن كمال نعمته وإحسانه الى عباده المؤمنين ان يمنع حصول مطالبهم بالشرك حتى يصرف قلوبهم الى التوحيد ، ثم انْ وحَّده العبدُ توحيد الالهية حصلت له سعادة الدنيا والآخرة .

---

(٢٥) سورة التكوير(٨١/٢٨ـ٢٩)

(٢٦) سورة الدهر(٧٦/٢٨ـ٣١)

(٢٧) سورة المدثر(٧٤/٥٥ـ٥٦)

وان كان ممن قيل فيه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلإِنْسَانَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِيْنَ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ ﴾(٢٨)

وفي قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِيْ ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُوْنَ إِلاَّ إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَىْ ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ ٱلإِنْسَانُ كَفُوْرًا ﴾(٢٩)

كان ماحصل له من وحدانيته حجة عليه .

كما احتج سبحانه على المشركين الذين يقرون بانه خالق كل شيئ ثم يشركون ولا يعبدونه وحده لاشريك له ، قال تعالى :

﴿ قُلْ لِّمَنِ ٱلأَرْضُ وَمَنْ فِيْهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ؟ سَيَقُوْلُوْنَ : للهِ ، قُلْ : أَفَلاَ تَذَكَّرُوْنَ ؟ قُلْ : مَنْ رَّبُّ ٱلسَّمَوَاتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيْمِ ؟ سَيَقُوْلُوْنَ : للهِ ، قُلْ : أَفَلاَ تَتَّقُوْنَ ؟ قُلْ : مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوْتُ كُلِّ شَيْئٍ وَهُوَ يُجِيْرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ؟ سَيَقُوْلُوْنَ : للهِ ، قُلْ : فَأَنَّى تُسْحَرُوْنَ ﴾(٣٠)

---

(٢٨) سورة يونس(١٠/١٢)

(٢٩) سورة الاسراء(١٧/٦٧)

(٣٠) سورة المومنون(٢٣/٨٤ـ٨٩)

وقال تعالى :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُوْلُنَّ اللهُ ، فَأَنَّى يُوْفَكُوْنَ ﴾[٣١]

وهذا قدذكر فى القرآن فى غير موضع .

فمن تمام نعمةالله على عباده المؤمنين ان يُنَزِّلَ بهم الشدةَ والضُّرَّ ومايلجئهم الى توحيده فيَدْعُوْنَهُ مُخلصين له الدينَ ، ويرجونه لا يرجون احدًا سواه ، وتتعلق قلوبُهم به لابعيره ، فيحصل لهم من التوكل عليه والانابة اليه . وحلاوةالايمان وذوق طعمه ، والبراءة من الشرك ما هو اعظم نعمةً عليهم من زوالالمرض والخوف ، أو الجدب ، أو حصولاليسر وزوالالعسر فى المعيشة ، فان ذلك لذَّاتٌ بدنية ونعمٌ دنيوية قديحصل للكافر منها اعظم ممايحصل للمؤمن .

واما مايحصل لأهل التوحيد المخلصين لله الدين فأعظم من ان يُعَبِّر عن كنهه مقالٌ ، أو يَستحضر نفضيلَه بالٌ ، ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر ايمانه ، ولهذا قال بعض السلف : ياابن آدم ! لقد بورك لك فى حاجة اكثرت فيها من قرع باب سيدك .

وقال بعض الشيوخ : انه ليكون لى الى الله حاجة فأدعوه فيفتح لى من لذيذ معرفته وحلاوة مناجاته مالااحب معه ان يُعَجِّلَ قضاءَ حاجتى خشيةَ انتنصرف نفسى عن ذلك : لأن النفس لاتريد الا حظها فاذا قضى انصرفت .

---

(٣١) سورة العنكبوت ٢٩ : ٦١

وفى بعض الاسرائيليات يابن آدم ! البلاء يجمع بينى وبينك ، والعافية تجمع بينك وبين نفسك .

وهذا المعنى كثير ، وهو موجود مذوق محسوس بالحس الباطن للمؤمن ، وما من مؤمن الا وقدوجد من ذلك مايعرف به ماذكرناه ، فان ذلك من باب الذوق والحس لايعرفه الا من كان له ذوق وحس بذلك .

ولفظ « الذوق » وان كان قديُظَنُّ انه فى الاصل مختص بذوق اللسان فاستعماله فى الكتاب والسنة يدل على انه اعم من ذلك مستعمل فى الاحساس بالملائم والمنافر ، كما ان لفظ « الاحساس » فى عرفالاستعمال عام فيما يحس بالحواس الخمس ، بل وبالباطن .

واما فى اللغة فأصله « الرؤية » كما قال :

﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾[٣٢]

و(المقصود) لفظ « الذوق » قال تعالى :

﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾[٣٣]

فجعل الخوف والجوع مذوقًا ؛ واضاف اليهما اللباس ليشعر انه لبس الجائع والخائف فشمله واحاط به احاطة اللباس باللابس ؛ بخلاف من كان الألم لايستوعب مشاعره بل يختص ببعض المواضع ، وقال تعالى :

﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴾[٣٤]

---

(٣٢) سورة مريم(١٩/٩٨)

(٣٣) سورة النحل(١٦/١١٢)

(٣٤) سورة الصافات(٣٧/٣٨) وفى الاصل «فذوقوا العذاب الاليم» وليس فى القرآن . نعم فيه «نذقه من عذاب اليم»(٢٢/٢٥)

وقال تعالى :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلعَزِيْزُ ٱلكَرِيْمُ ﴾[٣٥]

وقال تعالى :

﴿ ذُوْقُوْا مَسَّ سَقَرَ ﴾[٣٦]

وقال :

﴿ لاَيَذُوْقُوْنَ فِيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾[٣٧]

وقال تعالى :

﴿ لاَيَذُوْقُوْنَ فِيْهَا بَرْدًا وَلاَشَرَابًا إلاَّ حَمِيْمًا وَغَسَّاقًا ﴾[٣٨]

وقال :

﴿ وَلَنُذِيْقَنَّهُمْ مِّنَ ٱلعَذَابِ ٱلأَدْنَى دُوْنَ ٱلعَذَابِ ٱلأَكْبَرِ ﴾[٣٩]

وقدقال النبي ﷺ :

« ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربًا وبالاسلام دينًا

---

(٣٥) سورة الدخان(٤٤/٤٩)

(٣٦) سورة القمر(٥٤/٤٨)

(٣٧) سورة الدخان(٤٤/٥٦)

(٣٨) سورة النبا(٧٨/٢٤_٢٥)

(٣٩) سورة السجدة(٣٢/٢١)

وبمحمد نبيًا »[٤٠]

فاستعمال لفظ « الذوق » فى ادراك الملائم والمنافر كثير . وقال النبى ﷺ :

« ثلاث من كن فيه وجد حلاوةالايمان »[٤١] كما تقدم ذكرالحديث .

فوجود المؤمن حلاوةالايمان فى قلبه وذوق طعم الايمان امر يعرفه من حصل له هذا الوجد .

وهذا الذوق ، اصحابه فيه يتفاوتون ، فالذى يحصل لاهل الايمان عند تجريد توحيد قلوبهم الى الله واقبالهم عليه دون ماسواه بحيث يكونون حُنفاءَ له مخلصين له الدين ، لايُحبُّون شيئا الا له ، ولايتوكلون الا عليه ، ولايوالون الا فيه ، ولايعادون الا له ، ولايسألون الا اياه ، ولايرجون الا اياه ، ولايخافون الا اياه ، يعبدونه ويستعينون له وبه ، بحيث يكونون عند الحق بلا خلق ، وعند الخلق بلا هوى ؛ قدفنيت عنهم ارادة ماسواه بارادته ، ومحبة ماسواه بمحبته ، وخوف ماسواه بخوفه ، ورجاء ماسواه برجائه ، ودعاء ماسواه بدعائه ، هو امر لايعرفه بالذوق والوجد الا من له نصيب ، وما من مؤمن الا له منه نصيب .

وهذا هو حقيقةالاسلام الذى بعث الله به الرسل ، وانزل به الكتب وهو قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه . والله سبحانه اعلم .

---

(٤٠) راجع التعليق رقم(٢٨٤)

(٤١) انظر التعليق رقم(٢٨٥)

فهرس المباحث



صدر اخيراً

من « الدار السلفية »

الجزء الثانى من الموسوعة الحديثية الكبيرة

« الجامع لشعب الايمان »

للامام الحافظ ابى بكر احمد بن الحسين

البيهقى (م٤٥٨هـ)

بالتحقيق العلمى والتعليقات النافعة

وتخرج الاحاديث .

والجزء الثالث منه تحت الطبع


الدار السلفية
مطابع الدار السلفية